د. نبيل فاروق

روايات مصرية للجيب

رجل المستحيل

رمال.. ودماء..

141

Looloo

www.helmelarab.net



رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١ ـ المؤامـرة..

ارتسمت ابتسامة واسـعة، علـى وجـه مندوب المخابرات العامة المصرية، وهو يستقبل (منى) والباقين، عند سلم الطائرة الطبية الخاصة، التى نقلتهم من (موسكو)، وبدا شديد الحماسة، وهـو يقول:

ـ حمداً لله على سلامتكم يا أبطالنا.. أخبار ماافعلتموه فى (موسكو) بلغت الجميع، والسيد رئيس الجمهورية يرسل إليكم تحياته، وسيلتقى بكم جميعًا بإذن اللـه، بعد أن تتماثلوا للشفاء، من إصاباتكم المختلفة، التى حدثت هناك(*)..

تهلّلت أسارير خبيرة المتفجرات (ريهام)، وهى تقول فى حماسة:

(*) راجع قصة (المواجهة الأخيرة).. المغامرة رقم (١٤٠)

- بلغ شكرنا لسيادة الرئيس ، وأخبره أننا نتطلّع إلى هذا اللقاء بكل جوارحنا .

أضاف خبير الكمبيوتر والاتصالات (شريف) فى حزم :

- وأننا سنواصل العمل من أجل (مصر) ، حتى لو كانت حياتنا هى الثمن .

ابتسم مندوب المخابرات ، مغمغمًا :

- سيادته يعلم هذا جيدًا .

ثم استدار إلى (قدرى) ، الذى يتم نقله بمحفة خاصة ، إلى سيارة الإسعاف التى تنتظر عند سلم الطائرة ، وقال فى سعادة حقيقية :

- أما أنت يا سيّد (قدرى) فلا يمكنك أن تتصوّر مدى سعادتى برؤيتك سالمًا ، بعدما بلغنا من أمرك .

سعل (قدرى) مرتين ، قبل أن يلهث ، قائلاً :

- لن يتخلّصوا منى بسهولة يا صاح .. لقد زوّرت

ختم الرفض ، على جواز سفرى للآخرة ، مما منعنى من الرحيل ..

ابتسم مندوب المخابرات ، وهو يقول :

- عظيم .. روحك المرحة تؤكّد أنك على ما يرام يا سيّد (قدرى) .

سعل (قدرى) مرة أخرى ، ثم قال بابتسامة مرهقة :

- لا تصدّق كل ما تسمعه يا رجل .. لقد كان الله (سبحانه وتعالى) رحيمًا بى ، وأبقانى فى عالم الأحياء بكرمه (عزّ وجلّ) ، ولكن لولا بقايا كرامتى واعتزازى بنفسى ، لبكيت أمامك ، من فرط الألم ..

ربتت (منى) على كتفه مشفقة ، فتابع فى مرح ، وهو يلهث فى شدة :

- ولكن من المؤكّد أن هؤلاء المساكين ، الذين يقاتلون لرفع جسدى الضخم ، إلى سيارة الإسعاف ، هم الذين سيبكون بكل دموع الدنيا ، بعد دقائق قليلة .

قالها ، وقهقه ضاحكًا لحظة ، قبل أن يجبره الألم على التوقُّف ، ليعض شفتيه ، قائلاً :

ـ ولكن دعنى أسألك : لماذا لم يحضر (أدهم) معنا ، على الطائرة نفسها ؟! لماذا بقى فى (موسكو) ؟!

ربّت مندوب المخابرات على كتفه بدوره ، وهو يقول فى حزم :

ـ سأخبرك بكل شىء يا صديقى ، عندما يستقرّ بك المقام هنا .

ثم لوّح بيده ، مستطردًا ، قبل أن يغلق الرجال ، الذين أنهكهم التعب ، باب سيارة الإسعاف ، وأحدهم يقول ، وهو يلهث فى عنف :

ـ هل سننطلق به وحده إلى المستشفى ؟!

أشار إليهم مندوب المخابرات ، قائلاً :

ـ نعم .. الباقون سأصطحبهم إلى هناك فى سيارتى الخاصة .

أومأ الرجل برأسه متفهمًا ، ثم ركب سيارة الإسعاف ، وهو يلوّح بيده ، مواصلاً بنفس اللهاث العنيف :

ـ أخبرهم أن يتخذوا كل الاحتياطات اللازمة هناك .. لن يمكننا حمله مرة أخرى .

ابتسم مندوب المخابرات ، قائلاً :

ـ سأخبرهم .

ثم اتجه إلى سيارته ، وسيارة الإسعاف تبتعد بـ (قدرى) ، وقال وهو يدعو الآخرين لركوبها :

ـ هيا بنا .

سألته (منى) فى توتر ، وهى تدلف إلى السيارة :

ـ ألن تجيب سؤال (قدرى) ؟!

أدار مندوب المخابرات محرك سيارته ، وهو ينظر أمامه مباشرة ، فى صمت صارم ، قبل أن يقول فى اقتضاب :

ـ بالتأكيد .

اعتدلت (ريهام) فى انتباه ، وأرهف (شريف) سمعه فى اهتمام ، ومندوب المخابرات ينطلق بسيارته ، متابعًا :

ـ كلنا نعلم هنا أن ما قمتم به فى (روسيا) هو عمل بطولى ، بكل المقاييس ، ولقد استفادت القيادة السياسية الروسية به ، إلى أقصى حد ، وبخاصة عندما حصلت على المعلومات الخطيرة ، وقائمة أسماء المتعاونين ، وكبار زعماء (المافيا) الروسية ، والتى كانت تحويها تلك الأسطوانة المدمجة ، التى احتفظ بها (يورى إيفانوفيتش) ، ولقد جرت هناك حملة اعتقالات وتطهير واسعة ، سقط معها عدد من كبار السياسيين ، والعسكريين ، ورجال الأعمال ، وعلى الرغم من هذا ، فقد غضب بعض معاونى الرئيس الروسى ، من تدخُل جهات أمنية مصرية فى الأمر ، واعتبروه تدخلاً سافرًا فى شئونهم الداخلية ، بغضّ النظر عن ما كنا نواجهه نحن من خطر .

غمغمت (منى) فى ضيق :

ـ لهذا تم اعتبارنا شخصيات غير مرغوب فيها ، وتم ترحيلنا بطائرة طبية خاصة إلى هنا .

أومأ برأسه إيجابًا ، وهو يقول ، فى مزيج من الحزم والضيق :

ـ بالضبط .

سألته (ريهام) فى توتر :

ـ وماذا عن الأستاذ ؟! لقد قاد العملية كلها !

انعقد حاجبا مندوب المخابرات ، وهو يقول :

ـ سيادة العميد (أدهم) له وضع مختلف .

سأله (شريف) ، فى شىء من العصبية :

ـ ولماذا ؟!

صمت مندوب المخابرات العامة طويلاً هذه المرة ، وهو يقود سيارته فى براعة ، عبر شوارع (القاهرة) ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ ليست لدى أوامر بالتحدُث فى هذا الشأن .

وعلى الرغم من ضيقهم ، وغضبهم ، وتوترهم ، لم ينبس أحدهم ببنت شفة ؛ هذا لأنهم جميعًا رجال مخابرات ، ويدركون جيدًا طبيعة العمل ، فى جهاز شديد الحساسية كهذا ..

العمل الذى يمنحك الحق ، كل الحق ، فى أن تلقى ما تشاء من أسئلة ..

ولكنه لا يمنحك أدنى حق فى الحصول على جواب مباشر ..

أى جواب ..

* * *

« الروس استبقوا (أدهم صبرى) ؛ ليشرح لرجال مخابراتهم خبراته ، فى مواجهة عالم الجريمة المنظمة » .

نطق مستر (X) ، زعيم منظمة الجاسوسية الإجرامية العبارة ، فى هدوء واثق ، عبر جهاز الاتصال ، المرتبط بشبكة الإنترنت ، وشاشة الكمبيوتر تنقل وجهه الغارق

فى الظلام ، إلى عيون الآخرين ، الذين تابعوا فى توتر طرف سيجارته المشتعل ، عندما جذب أنفاسها فى عمق ، على أمل أن يكشف وهجها الخافت شيئًا من ملامحه ، وهو يتابع فى حزم صارم ، على الرغم من هدوئه الواثق :

ـ هذا يخالف النمط الروسى المتعجرف ، الذى اعتدناه دومًا ، مما يثبت أنه يمثل بالنسبة لهم أهمية بالغة ، وخبرة لا يمكن تجاهلها .

غمغم أحد الرجال فى توتر :

ـ هذا صحيح .

لاذ الثلاثة الآخرون بالصمت ، وكأنهم يؤمنون على تعليقه هذا ، فى حين واصل مستر (X) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ معلوماتى تقول : إنه قد تعافى من إصاباته ، واستعاد معظم قدراته الفائقة ، ولكن شقيقه طبيب وجراح المخ والأعصاب ، مصرٌّ على حتمية حصوله على قسط وافر من الراحة ، ويواصل عمل الفحوص

الخاصة به ، حتى يطمئن إلى أن الخطر قد زال تمامًا .

مطّت إحدى الحاضرات شفتيها ، وهى تقول فى صرامة :

ـ أنحن هنا لمناقشة التقرير الطبى ، الخاص برجل المخابرات المصرى هذا ؟!

اتسعت عيون الآخرين فى ارتياع ؛ لجرأتها المدهشة ، فى التعامل مع مستر (X) ، الذى يرهبه الجميع ويخشونه ، فى حين صمت هو بضع ثوان ، قبل أن يقول فى صرامة قاسية :

ـ أتعرفين بمن تذكريننى يا عزيزتى (لورا) ؟!

نفثت دخان سيجارتها فى بطء مستفز ، قبل أن تهزّ كتفيها ، قائلة فى استهتار ، ساخر :

ـ لا تقل : إننى أذكّرك بنجمة الإغراء الراحلة (مارلين مونرو)[*] ؛ فقد سئمت سماع هذا .

(*) مارلين مونرو : (١٩٢٦-١٩٦٢م) : ممثلة أمريكية ، اسمها الأصلى (نورماجين بيكر) ، اشتهرت بجاذبيتها ، وبعلاقاتها بعدد من السياسيين والمشاهير ، وعلى رأسهم الرئيس الأمريكى (جون كيندى) ، ولقد انتهت حياتها بالانتحار ، الذى يعدّ لغزًا غامضًا ، حتى يومنا هذا .

بدا صوت مستر (X) أكثر قسوة وصرامة ، وهو يقول :

ـ كلاً يا (لورا) .. ليس (مارلين مونرو) وإن كنت أتصورّ أن نهايتك قد تتشابه كثيرًا مع نهايتها .

انعقد حاجباها بشدة ، عند هذه النقطة ، ونفثت دخان سيجارتها فى عصبية شديدة ، فى حين تابع هو ، بنفس القسوة والصرامة :

ـ إنك تذكريننى بأخرى ، كانت أكثر منك غرورًا وغطرسة ، وكانت تتصورّ أنها أكثر ذكاءً وبراعة من كل ما حولها ، حتى وقع انفجار ، نسف وسحق كل هذا فى ثانية واحدة[*] .

ألقت سيجارتها أرضًا ، وسحقتها بقدمها فى عصبية أكثر ، قائلة :

ـ تتحدث عن (سونيا جراهام) .. أليس كذلك ؟!

أجابها فى قسوة مخيفة :

ـ ألم أقل لك إنك تذكريننى بها ؟!

(*) راجع قصة (الأبطال) .. المغامرة رقم (١٣٤) .

مطت شفتيها الجميلتين فى توتر بالغ ، والرجال الثلاثة الآخرون ينقلون أبصارهم ، بينها وبين شاشة الاتصال فى قلق ، قبل أن يتنحنح أحدهم ، مغمغمًا فى خفوت ، وبصوت متحشرج من فرط التوتر :

ـ ألدينا خطة بشأن (أدهم صبرى) هذا أيها الزعيم ؟!

صمت مستر (X) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى حزم صارم مقتضب :

ـ بالتأكيد .

انتبه الكل بكياناتهم ومشاعرهم ، وتعلقت عيونهم بصورته على الشاشة ، وهو يطفئ سيجارته فى هدوء ، قبل أن يواصل :

ـ الهدف الرئيسى ، الذى نسعى إليه بالفعل ، هو السيطرة على مدينة (نيويورك) ، كخطوة أولى للسيطرة على الولايات المتحدة الأمريكية كلها .

اتسعت عيونهم فى دهشة مبهورة ، وتبادلوا نظرة شديدة العصبية ، قبل أن يقول أحدهم :

ـ مستر (X) .. ما تتحدث عنه أمر خطير للغاية ، وعلى الرغم من أننا ندرك قوتك ، وقوتنا مجتمعين ، إلا أننا نتحدث عن أقوى دولة فى العالم الآن .. دولة القطب الأوحد ، التى لاتجرؤ كل دول العالم عن تحديها أو مواجهتها ، أو ...

قاطعه مستر (X) فجأة ، بضحكة عالية مجلجلة ساخرة ، جعلت التوتر يسرى فى عروقهم جميعًا ، قبل أن تغمغم (لورا) ، فى عصبية بلا حدود :

ـ ما الذى يضحك فى هذا ؟!

بتر مستر (X) ضحكته فجأة على نحو ضاعف من توترهم ، قبل أن يميل إلى الأمام ، دون أن يخرج وجهه من دائرة الظل ، ويقول فى صرامة :

ـ من الواضح أنكم تتعاملون مع الأمور ، كما لو أن كل معلوماتكم مستقاة من الصحف ، ووسائل الإعلام المختلفة .

تضاعف توترهم ، وهم يتبادلون نظرة عصبية ،

دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة ، فى حين تابع هو بنفس الصرامة :

- (أمريكا) هذه ، التى تتحدثون عنها ، قد تبدو قوية مخيفة ، عندما تتعامل مع الدول الأخرى ، ولكن الواقع أنها ليست كذلك من الداخل ، فهناك عشرات المنظمات والجهات القوية ، التى تحكم ذلك المجتمع ، وتتحكم فى توجيه سياساته الداخلية والخارجية ، من خلال سيطرتها على الاقتصاد ، وتمويلها للرئيس المنتخب ، واختراق معظم أفرادها لـ (الكونجرس)(*) ، بفضل أموالهم ، وشرائهم للإعلام ووسائله ، مما يجعلهم القوة الحقيقية ، المتحكمة فى السياسات والنظم .

ثم توقَّف ليلتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف :

- ونحن سنسعى للسيطرة على بعض هذه القوى .

سألته (لورا) ، وهى تشعل سيجارة جديدة فى توتر :

(*) الكونجرس : السلطة التشريعية فى الولايات المتحدة الأمريكية ، تأسس عام ١٧٨٩م ، بمقتضى المادة الأولى من دستور الولايات المتحدة ، التى نصت على تشكيله ، وحددت سلطاته ، وهو يتكوّن من مجلسين : (مجلس الشيوخ) و(مجلس النواب) ، ويصدّق (الكونجرس) على المعاهدات والتعيينات المهمة ، التى يصدرها الرئيس .

- أية قوى ؟! صحيح أننا مع اتحادنا ، نمتلك ثروات هائلة طائلة ، إلا أنها تحتاج إلى عشرات السنين ، للسيطرة على الاقتصاد الأمريكى ، واللوبى اليهودى يعمل لحساب (إسرائيل) وحدها ، و ...

قاطعها مستر (X) هذه المرة ، قائلاً :

- وماذا عن (المافيا) ؟!

بُهت الأربعة لقوله هذا ، وتبادلوا نظرة مذعورة ، قبل أن يقول أحدهم ، فى حذر شديد :

- ماذا عنها ؟! (المافيا) نظام محكم مغلق ، لايمكن اختراقه أو السيطرة عليه ؛ لأنه عبارة عن مجموعة من الأسر الصقلية والإيطالية ، التى تتعامل فيما بينها بنظام دقيق ، وقواعد يستحيل العبث بها ، وإلا كان الموت هو نصيب كل من يحاول .

أجابه مستر (X) ، فى برود مستفز :

- أعلم كل هذا .

ثم عاد يميل إلى الأمام ، مضيفًا فى صرامة :

- ولهذا سنضيف إلى مجلسنا عضوًا جديدًا .

نفثت (لورا) دخان سيجارتها ، وهى تقول فى عصبية :

- عضو خامس ؟! أعنى عضو سادس ، لو أن صفة العضوية تنطبق عليك أيضًا .

أجاب فى صرامة خشنة :

- فلنقل : إنه عضو جديد فحسب .

ثم اعتدل ، ليضغط زرًا أمامه ، مضيفًا :

- عضو إيطالى .

مع قوله ، انفتح باب جانبى ، فى الحجرة التى يجلسون فيها ، واستدارت عيونهم جميعًا إليه ، ليتطلعوا فى توتر إلى رجل بالغ الوسامة والأناقة ، يرتدى حلة فاخرة للغاية ، تساوى وحدها ثروة طائلة ، ويلتمع فى بنصر يسراه خاتم ذهبى ثمين ، تزينه ماسة كبيرة متألقة ..

وفى هدوء واثق إلى حد مستفز ، وبحذاء إيطالى الصنع ، يدق كعبه على الأرض بإيقاع سخيف ، دلف ذلك الوسيم الأنيق إلى المكان ، واتخذ مجلسه على المقعد الخامس ، وكأنه يعرف هدفه مسبقًا ، فى حين قال مستر (X) ، من خلال شبكة الاتصال :

- ألقوا التحية على دون (ألبرتو جوماتى) .. عضو مجلسنا الجديد ، وزعيم إحدى أكبر عائلات (المافيا) فى (نيويورك) والولايات المتحدة الأمريكية كلها .

ارتسمت ابتسامة أنيقة على شفتى دون (ألبرتو) ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين تطلع إليه الأربعة فى تحفز عدائى ، قبل أن يتساءل أحدهم ، فى عصبية واضحة ، عبرت عما تجيش به صدور الآخرين .

- مازلت لا أعلم ، ما علاقة كل هذا بـ (أدهم صبرى) ؟!

التقط مستر (X) نفسًا عميقًا من سيجارته ، وأطلقه فى وجه شاشة الاتصال ، قبل أن يجيب فى حزم وصرامة :

- السيطرة على منظمة (المافيا) وعائلاتها ، يستلزم

إزاحة الأب الروحى الحالى لها ، ليحلّ محله شريكنا دون (جوماتى) ، وكلكم تعلمون أن دونا (كارولينا) هى الأب الروحى الحالى للمنظمة .

مطّ دون (جوماتى) شفتيه ، قائلاً فى ازدراء :

- امرأة هى الأب الروحى ! يا للفضيحة !

التفتت إليه (لورا) فى شراسة ، قائلة :

- وماذا فى هذا ؟!

عاد يمطّ شفتيه ، بأسلوب إيطالى محض ، متجاهلاً غضبها تمامًا ، وهو يقول فى صرامة :

- هذا أمر لم يحدث قط ، منذ نشأت المنظمة .

قالت فى حدة :

- كل شىء يتغيّر .

زمجر مستر (X) ، قائلاً فى صرامة :

- ليس هذا موضوعنا الآن .

استدارت إلى شاشة الاتصال ، ونفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، قائلة :

- ولا فى أى وقت آخر .

قال فى قسوة :

- هذا أفضل .

وصمت لحظة ، قبل أن يتابع ، بلهجة توحى بأنه غير مستعد للمناقشة أو الحوار :

- وكلكم تعلمون أيضًا أن (أدهم صبرى) هذا صديق شخصى لدونا (كارولينا) ، وأنهما قد اعتادا الاستجابة لنداء بعضهما ، فى الخطوب والأزمات ، وهذا يعنى أنه ما إن تواجه دونا الخطر ، حتى يهرع هو لإنقاذها وحمايتها ..

غمغم أحدهم فى حذر :

- إنه مجرّد رجل واحد ، فى كل الأحوال .

استدار إليه دون (جوماتى) بحركة حادة ، فى حين رمقه الثلاثة الآخرون بنظرة صارمة ، فارتبك ، مغمغمًا :

- من الناحية العددية فحسب .

مطّت (لورا) شفتيها ، والتفتت إلى الشاشة ، قائلة :

ـ وكيف يمكننا التخلّص من رجل المخابرات المصرى هذا الآن ؟! من المؤكد أنه تحت حماية قوية فى (موسكو) ، ولو أضفنا هذا إلى قدراته ، سنجد أن النيل منه شبه مستحيل ، فى هذه الحالة .

على الرغم من الظلام الدامس ، المحيط بوجه مستر (X) بدا من الواضح ، مع تلك النبرة فى صوته ، أنه قد ابتسم فى ثقة ، قائلاً :

ـ ولكنه يعود حتمًا إلى وطنه .

تساءلت فى توتر أكثر :

ـ وهل تعتقد أنك تستطيع الظفر به ، وهو فى طريقه إلى وطنه ؟! ألا تعتقد أن الروس والمصريين سيتخذون كل الاحتياطات اللازمة ؛ لمنع اقتناصه فى أثناء الرحلة ، خاصة وأنهم يعلمون أن المئات ، من كل أنحاء العالم ، يتمنون القضاء عليه ، فى أية فرصة ممكنة ؟

التقط نفسًا عميقًا ، وهو يقول فى حزم مقتضب :

ـ لدى خطة محكمة .

سألته فى سرعة :

ـ وما هى ؟!

مال إلى الأمام ، وهو يجيب ، فى لهجة حملت الكثير من القوة والثقة والحزم :

ـ سنوجّه ضربة لدونا (كارولينا) .

هتف الأربعة فى دهشة ، فى آن واحد :

ـ ماذا ؟!

أما دون (جوماتى) ، فقد ابتسم فى ثقة ، فى نفس اللحظة التى أضاف فيها مستر (X) ، بكل حزم الدنيا .

ـ وفى الوقت المناسب تمامًا .



أما (دون چومانى) ، فقد ابتسم فى ثقة ، فى نفس اللحظة التى أضاف فيها مستر (✖) ، بكل حزم الدنيا ..

وعلى الرغم من دهشتهم البالغة ، فقد استمعوا إليه بكل حواسهم وانتباههم ..

وكانت خطته بالفعل دقيقة ..

ومذهلة ..

إلى أقصى حد ممكن .





٢ـ الخطوة الأولى ..

تنهّد الدكتور (أحمد صبرى) فى ارتياح غامر ، وهو يراجع نتائج آخر الفحوص ، التى أجراها لشقيقه (أدهم)، ثم ارتسمت على شفتيه ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ حمدًا لله .. كل شىء عاد إلى معدّلاته الطبيعية .

واتسعت ابتسامته ، وهو يهزّ رأسه ، مستطردًا :

ـ الواقع أن استجابة جسدك مدهشة كطبيعتك يا (أدهم) .. لقد التأمت جروحك على نحو مثالى ، واستعدت قوتك فى سرعة قياسية ، على الرغم من خطورة إصاباتك وعنفها .

قال رجل المخابرات الروسى (سيرجى كوربوف)، ببرودته المعهودة :

ـ هذا أمر طبيعى .. الزميل (أدهم) قوى البنية ،

جمّ النشاط ، والجسد الذى اعتاد بذل كل هذا الجهد طوال الوقت ، يمكنه إعادة بناء خلاياه أسرع من الآخرين .

أومأ الدكتور (أحمد) برأسه ، موافقًا ومؤيّدًا ، وهو يقول :

ـ أظننى سأسعى لإثبات هذا طبيًّا يا رجل .

ربّت (أدهم) على كتف شقيقه ، قائلاً :

ـ أعتقد أنهم قد منحوك عرضًا ممتازًا ، للقيام بتجاربك هذه هنا .

ارتفع حاجبا الدكتور (أحمد) فى دهشة ، وهو يهتف :

ـ كيف عرفت هذا ؟!

انعقد حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يقول فى صرامة :

ـ يا له من سؤال ! شقيقك رجل مخابرات .

هتف الدكتور (أحمد) بدهشة أكبر :

- يا إلهى ! لم أكن أتصور أن ..

قاطعه (أدهم) ضاحكًا :

- لاتفرط فى خيالك ياشقيقى العزيز .. لقد أخبرنى (سيرجى) بهذا .

ابتسم الدكتور (أحمد) بضع لحظات ، قبل أن يقول فى جدية :

- ولكننى مازلت مترددًا فى قبول هذا العرض .

سأله (سيرجى) ، ببرود مستنكر :

- ولِمَ ؟! إننا أكثر شعوب الأرض اهتمامًا ، بدراسة قدرات الجسد البشرى ، سواء الطبيعية ، أو فوق الطبيعية ، ولدينا مراجع سرية ضخمة فى هذا الشأن ، تحوى تجارب مايزيد على نصف قرن من الزمان ، وكلها ستصبح متاحة بالنسبة لك ، عندما تبدأ تجاربك ، وكذلك ستتاح لك كل القدرات والإمكانيات العلمية ، والمعملية ، والطبية أيضًا ، لإجراء كل

ما يحلو لك من تجارب ، وستحصل على أجر لم يحصل عليه أى عالم روسى على الإطلاق .

هزَّ (أدهم) كتفيه ، قائلاً :

- أظنه عرض لا يمكن رفضه .

تردَّد الدكتور (أحمد) بضع لحظات ، قبل أن يقول :

- كنت أتمنى أن أفعل هذا فى (مصر) .

أجابه (أدهم) فى حزم :

- أيًا كان المكان الذى ستفعله فيه ، فافعله من أجل (مصر) ، ومادامت الإمكانيات هنا أفضل ، والتجارب السابقة لايمكن الحصول عليها من مكان آخر ، فهذا هو المكان المناسب لأبحاثك .

وصمت لحظة ، التقط خلالها نفسًا عميقًا ، قبل أن يضيف .

- ثم إن العلم يتاح فى النهاية للجميع .

تمتم (سيرجى) بنفس البرود :

- بالتأكيد .

اللهجة التى نطق بها الكلمة ، جعلت الدكتور (أحمد) يشعر بقلق أكثر ، وهو يتطلع إلى شقيقه (أدهم) بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يسأله فى اهتمام :

- قل لى : متى ستعود إلى (القاهرة) ؟!

التفت (أدهم) إلى (سيرجى) ، الذى أجاب فى سرعة وحزم :

- غدًا صباحًا .

غمغم الدكتور (أحمد) ، فى صوت حمل كل قلقة :

- حقًا ؟!

تابع (سيرجى) بنفس الحزم :

- هذا أمر لا يعرفه سوى ثلاثتنا ، ولقد تم اختيار طاقم الطائرة بمنتهى الدقة والعناية ، من خلال أفضل العناصر لدينا ، والطائرة نفسها تم فحص كل شبر منها ،

بوساطة فريق من أفضل وأخلص خبرائنا ، وخط سيرها سيتم تحديده للطاقم عند الإقلاع فحسب ، وهذا لضمان أمن الزميل (أدهم) وسلامته ، حتى يبلغ (القاهرة) .

بدا شىء من القلق على وجه الدكتور (أحمد) ، فقال (أدهم) لتهدئة الأمور :

- عظيم .. أنا نفسى ما كنت لأفعل أفضل من هذا .

قالها وهو يبتسم ، فابتسم شقيقه الدكتور (أحمد) بدوره ، وحاول أن يبث فى نفسه شيئًا من الارتياح والثقة ..

إلا أنه لم يستطع أبدًا ..

فعلى الرغم من أن كلمات (سيرجى) كانت توحى بمنتهى الأمن والأمان ، إلا أن شيئًا ما ، فى أعماق الدكتور (أحمد) ، كان يشعر بأن هذه الرحلة ستحمل الخطر لشقيقه الوحيد ..

كل الخطر ..

بلا استثناء ..

* * *

بدا العضو الروسى ، فى مجلس منظمة (X) للجاسوسية شديد التوتر ، على نحو يفوق المعتاد ، وهو يجلس على مقعده الكبير ، أمام شاشة الاتصال ، قائلاً لزعيم المنظمة الغامض :

ـ طائرة رجل المخابرات المصرى ستقلع فى السابعة والنصف ، من صباح الغد ، ولقد حصلت على أسماء طاقم قيادتها كما أمرت .

سأله مستر (X) فى صرامة :

ـ ولماذا تبدو متوترًا إلى هذ الحد ؟!

هزّ الروسى رأسه فى توتر ، وهو يجيب :

ـ أنت لاتعرف كيف تسير الأمور فى (موسكو) هذه الأيام ! لقد أشعلت حملة السيطرة على (المافيا) كل شىء ، وكل شخص ، ومن السهل جدًا أن يتمّ اعتقالك ، وإلقاؤك فى غياهب السجون ، لمجرّد أنك قد سعيت للحصول على معلومة شديدة السرية كهذه .

تراجع مستر (X) فى مقعده ، وهو يقول :

ـ المجتمع المثالى فكرة حمقاء ومستحيلة ، ومهما

تعقّت الأمور ، سيظلّ هناك فساد وانحراف وتجاوزات ، ما دام هناك جشع ، وطمع ، ولهفة على الفوز بكل شىء ، دون جهد كبير .

عاد الروسى يهزّ رأسه ، قائلاً فى توتر أكبر :

ـ ليس كما تتصوّر .

مال مستر (X) نحو الشاشة ، بوجهه الغارق فى الظلام ، واكتست لهجته الصارمة بشىء من القسوة والشراسة ، وهو يسأله :

ـ كيف حصلت على مثل هذه المعلومات إذن ؟!

أجابه الروسى فى عصبية :

ـ لقد كلفنى هذا ثروة .

تراجع مستر (X) بحركة حادة ، قائلاً :

ـ أرأيت ؟!

استوعب الروسى ما يعنيه زعيمه ، فأومأ برأسه متفهمًا فى صمت ، وإن ظلّ على توتره ، ومستر (X) يقول فى صرامة :

- ما فعلته مجرَّد خطوة أولى فى خطتنا ، ولو أن أعصابك ثائرة إلى هذا الحد الآن ، فكيف ستُواصل العمل معنا ، فى الخطوات التالية ؟!

ازدرد الروسى لعابه فى صعوبة ، وهو يقول فى خفوت :

- سأفعل كل ما تأمرنى به أيها الزعيم .

أجابه مستر (X) ، فى صرامة أكثر قسوة :

هذا ما أتوقَّعه .

وصمت لحظة ، ليشعل سيجارته ، وينفث دخانها فى قوة ، قبل أن يتابع :

- سيقوم خبراؤنا الآن بدراسة المعلومات التى حصلت عليها ؛ لاختيار الشخص المناسب للمهمة ، وعليك أن تستعد مع رجالك ، للقيام بالخطوة التالية .

حاول الروسى أن يزدرد لعابه مرة أخرى ، ولكن تلك الغصة فى حلقه منعته من هذا ، وجعلت صوته جافًا خشنًا ، وهو يجيب :

- نحن على أهبة الاستعداد ؛ لتنفيذ المطلوب .

قال مستر (X) فى قسوة :

- عظيم .

ثم نفث دخان سيجارته مرة أخرى ، فى قوة أكثر ، قبل أن يواصل فى حزم :

- وعلى دون (جوماتى) أن يؤدى عمله فى (نيويورك) أيضًا .

وتألَّقت عيناه ، وسط الظلام المحيط به ، وهو يستطرد فى صرامة ، حملت لمحة عجيبة من الجذل :

- أظنها نهاية رجل المخابرات المصرى هذه المرة .. نهايته المحتومة .

ومع آخر حروف كلماته ، انطلقت من حلقه ضحكة قصيرة ..

ضحكة حملت كل الثقة ..

وكل الشر ..

* * *

انعقد حاجبا دونا (كارولينا) فى غضب ساخط، وهى تتطلع إلى وجهها، فى مرآة حجرتها الخاصة، مغمغمة:

- يالسخافة! مازال وجهى يحمل بعض آثار الانفجار الروسى السخيف[*] ..

ابتسم مساعدها (كارلو فيفيانى)، وهو يشير بيده، قائلاً:

- لاتبالغى يادونا .. إنها مجردُ خدوش، لايمكن أن تنال من جمالك الأخّاذ.

استدارت إليه، هاتفة فى حدة:

- نفاق واضح.

ثم ابتسمت بغتة، وهى تميل نحوه، وتمسّ وجنته بأناملها، مستطردة:

- ولكنه يروق لى.

(*) راجع قصة (نمور الثلوج) .. المغامرة رقم (١٣٣).

اتسعت ابتسامة (كارلو)، وهو يقول:

- أعلم هذا يا دونا .. أعلم هذا.

استعادت جديتها وصرامتها بسرعة، وهى تعتدل، قائلة:

- والآن أريد تقريرًا تفصيليًا عما حدث، منذ ذلك الانفجار الروسى وحتى استعدت قدرتى على العمل .. هيا .. بدقة وإيجاز.

أخرج (كارلو) من جيبه ورقة، راح يقرأ عليها ماحوته، فى سرعة ودقة، وهى تتابعه فى انتباه كامل، حتى انتهى من مراجعة كل شىء، ثم طوى الورقة، وأعادها إلى جيبه، قائلاً:

- بقيت نقطتان، خارج التقرير الرسمى.

سألته فى اهتمام:

- وما هما ؟!

لوّح بيده، قائلاً:

- حالة فتاة المخابرات المصرية (جيهان)؛ فمنذ

وقع الانفجار ، لم تستعد وعيها بعد ، والأطباء فى مستشفانا يقولون : إنه من المحتمل أن يستغرق الأمر عامًا أو يزيد ، كما لايمكنهم ضمان جودة عمل تلك الشريحة ، المزروعة فى عمودها الفقرى ، بعد هذه الفترة(*) .

انعقد حاجباها الجميلان فى ضيق ، وهى تقول :

- ياللخسارة ! كيف سأشرح الأمر لـ (أدهم) ؟! كيف سأخبره أننى قد فشلت فى حماية رفاقه ؟!

قال (كارلو) فى حزم :

- لقد انتقمنا لما أصابهم ، بمنتهى العنف .

زفرت وهى تهزّ رأسها ، مغمغمة :

- هذا لايكفى .

تطلّع إليها (كارلو) بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يلتقط يدها ، ويطبع قبلة على أناملها ، قائلاً :

(*) راجع قصة (نقطة الضعف) .. المغامرة رقم (١٢٧) .

- لاتجعلى هذه الأفكار تفسد أمسيتك يا أميرتى ، فالكل ينتظر رؤية فتنتك الطاغية ، فى حفل الليلة .

سحبت يدها من بين أصابعه فى ضيق ، وهى تقول :

- هؤلاء الذين تتحدّث عنهم ، يتمنون رؤيتى فى قاع المحيط ، مع حجر حول وسطى .

تراجع هاتفًا :

- ليس إلى هذا الحد .

أجابته فى صرامة :

- بل إلى ما هو أكثر من هذا ، ومنذ الأزل .

والتقطت فراءها ، متابعة فى حنق :

- كل شخص يطمح دومًا إلى لقب (الأب الروحى) هذا ، ولو راجعت تاريخنا الطويل ، لوجدت أن بعضهم لم يتورّع عن قتل زعماء العائلات الأخرى للفوز به .

مال نحوها ، قائلاً فى خبث :

- مثل شقيقك (مايكل) ؟!

انعقد حاجباها مرة أخرى ، وهى تقول :

- (مايكل) تصرّف بغباء مثل غيره ، واستحق المصير الذى انتهى إليه أمره .

ثم رفعت عينيها إليه ، مستطردة فى صرامة مباغتة :

- ما الأمر الثانى ، الذى كنت تتحدّث عنه .

تردّد لحظة ، قبل أن يرسم على شفتيه ابتسامة ، قائلاً :

- أفضّل تأجيله إلى ما بعد حفل الليلة .

قالت فى عصبية ساخرة :

- ولماذا ؟! إننى أميل دومًا إلى سماع الأخبار المزعجة ، قبل الحفلات الترفيهية مباشرة .. هذا يخفف من وطئها .. أليس كذلك ؟!

تردّد لحظة أخرى ، وهمّ بقول شىء ما ، لولا أن ارتفع رنين هاتفه المحمول بغتة ، فالتقطه بحركة سريعة ، وضغط زر الاتصال ، قائلاً :

- (فيفيانى) .. من المتحدّث ؟!

انعقد حاجباها فى شدة ، عندما رأت وجهه يمتقع على نحو عجيب ، وهو يقول بصوت أكثر شحوبًا من ملامحه :

- ومتى حدث هذا ؟!

سألته فى عصبية :

- ماذا حدث ؟!

رفع عينين مذعورتين إليها ، وهو يقول لمحدّثه عبر الهاتف المحمول :

- فليكن .. سنصل بأقصى سرعة .

أنهى الاتصال ، وهى تقول فى عصبية أكثر :

- من الواضح أن عدد الأخبار السيئة قد ارتفع إلى ثلاثة .. هيا .. أبلغنى ما لديك ، قبل أن يتضاعف العدد .

تطلّع إليها فى توتر بالغ ، وهو يقول :

- بعضهم هاجم مستشفاك الخاص يا دونا .

اتسعت عيناها ، وهى تهتف :

ـ بعضهم ؟! ماذا تعنى ببعضهم هذه ؟! ثم ماذا يريد هؤلاء البعض من مستشفاى ؟!

ازدرد لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ المصرية .

خيّل إليها أنها لم تحسن سماع كلماته ، وهى تقول :

ـ من ؟!

أجابها بصوت عصبى أجش :

ـ المصرية .. لقد اختطفوا فتاة المخابرات المصرية .

شهقت دونا (كارولينا) ، وهى تتراجع بحركة حادة ، وعيناها تتسعان عن آخرهما فى ارتياع ..

لقد اختطفوا (جيهان) ، الغارقة فى غيبوبة عميقة ..

فكيف ستواجه (أدهم) بما حدث ؟!

كيف ؟!

كيف ؟!

* * *

تألقت عينا مستر (X) ، عندما تلقى خبر نجاح عملية اختطاف (جيهان) ، وبدا صوته مفعمًا بالحيوية ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يقول :

ـ عظيم يا (لورا) .. عظيم .. هذه كانت أصعب خطوة ، فى العملية كلها ، ولقد أنجزتها بنجاح مدهش .

نفثت (لورا) دخان سيجارتها ، وهى تتطلع إلى صورته المظلمة على الشاشة ، قائلة :

ـ هذا أمر طبيعى ، ما دمت قد أشرفت عليها بنفسى ، فالنساء كما تعلم ، أكثر قدرة من الرجال على الترتيب والتنظيم ، و ....

قاطعها فى صرامة ، قائلاً :

ـ لسنا هنا لسماع محاضرة ، حول تفوق المرأة يا (لورا) .. إننا نناقش نتائج إحدى عملياتنا فحسب .

انعقد حاجباها فى ضيق ، وهى تقول :

ـ فليكن .. لقد أخذنا تلك الفتاة ، ونقلناها إلى مزرعة

(جوماتى) ، فى (لوس أنجلوس) ، حيث تم إعداد حجرة طبية خاصة بها ، للحفاظ على حياتها ، حتى تنتفى الحاجة إليها .

ثم اكتسبت لهجتها عصبية مباغتة ، وهى تتابع :

ـ وإن كنت أرى أنه من الأفضل أن نتخلّص منها ، ومن كل المتاعب التى يجرها علينا وجودها على قيد الحياة .

أجابها فى خشونة :

ـ لا تشغلى نفسك بالتفكير .. نفذى ما آمرك به فحسب .

ازداد انعقاد حاجبيها ، وهى تقول فى سخط :

ـ فليكن .

وألقت سيجارتها أرضًا ، لتسحقها بقدمها ، وهى تسأله فى عصبية :

ـ هل تتوقَّع أن يجذبه هذا ؟!

أجابها فى حزم واثق :

ـ دون أدنى شك .

وصمت لحظة ، ثم تابع فى هدوء :

ـ الخبر سيبلغه قبل أن يستقل طائرته بساعة واحدة ، وهذا سيجعله يصرّ علي تعديل مسار الرحلة ، لينطلق إلى (نيويورك) ، بدلاً من (القاهرة) .

سألته فى حذر :

ـ وهل سينتظره رجالنا فى (نيويورك) ؟!

أطلق ضحكة ساخرة قصيرة مستفزة ، قبل أن يقول :

ـ فكرة تقليدية سخيفة بحق .

أشعلت سيجارة جديدة ، وهى تقول فى عصبية :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟! هل سنعد له حفل استقبال ، فى مطار (جى . إف . كيه) ؟!

أجابها فى هدوء :

ـ كلاً بالتأكيد .

ثم مال إلى الأمام ، مضيفًا فى حزم :

ـ فطائرته لن تصل إلى (نيويورك) أبدًا .

احتبس دخان سيجارتها فى حلقها لحظة ، قبل أن تسعل فى عنف ، ثم تسأله فى عصبية أكثر :

ـ هل ستعمل على نسفها ؟!

أطلق ضحكة ساخرة أخرى ، وهو يقول :

ـ أفكارك دائمًا تقليدية ، على نحو يستحيل تنفيذه يا (لورا) ، فكيف تتوقعين نجاحنا فى تلغيم طائرة ، أحاطتها المخابرات الروسية بكل سبل الحماية والحراسة ؟!

سألته ، وقد بلغت عصبيتها ذروتها :

ـ كيف لن تبلغ طائرته (نيويورك) إذن ؟!

خُيِّل إليها أن عينيه قد تألقتا وسط الظلام المحيط بوجهه ، وهو يقول :

ـ خمّنى !

نطقها ، وأطلق ضحكة عالية قوية ..

ضحكة تموج بالثقة ..

والشر ..

والغموض ..

بلا حدود ..

* * *

« لا تحاول يا (سيرجى) .. »

نطق (أدهم) العبارة فى صرامة ، وهو يعقد ساعديه أمام صدره فى قوة ، قبل أن يتابع فى حزم :

ـ إما أن يتم تحويل مسار الرحلة إلى (نيويورك) ، بدلاً من (القاهرة) ، أو أستأجر طائرة خاصة على نفقتى ، للذهاب إلى هناك .

تطلّع إليه (سيرجى) ببروده التقليدى ، قائلاً :

ـ هل تعلم كم يكلف استئجار طائرة خاصة هنا ؟!

أجابه (أدهم) فى صرامة :

ـ لا تشغل نفسك بالنفقات .. لدى ما يكفى لسدادها وزيادة .

أضاف الدكتور (أحمد) ، الذى يتابع حوارهما منذ البداية فى صمت :

ـ دعه يفعل ما يريد يا سيِّد (سيرجى) ، فشقيقى (أدهم) عنيد للغاية ، عندما يتعلَّق الأمر بأحد زملائه ، ولن يمكنك إقناعه بالتراجع قط ، مهما قلت أو فعلت .

غمغم (سيرجى) ، وهو يتطلَّع إلى (أدهم) مباشرة :

ـ أعلم هذا .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى صرامة :

ـ ولكنها نقطة ضعف خطيرة ، يمكن لأى خصم استغلالها ، للنيل منه يومًا .

سأله (أدهم) :

ـ أتعتقد هذا ؟!

هزَّ (سيرجى) كتفيه ، قائلاً :

ـ ألديك تفسير آخر لأنهم قد اختطفوها ، بدلاً من أن يطلقوا النار عليها ، وينهوا أمرها فى لحظات ؟!

انعقد حاجبا (أدهم)، دون أن يجيب، فتابع (سيرجى) فى صرامة :

ـ إنهم يسعون لجذبك إلى هناك .

صمت (أدهم) بضع لحظات أخرى ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ لقد نجحوا إذن .

امتزج حاجبا (سيرجى) الكثين ، وهو يقول :

ـ إذن فما زلت تصرّ على السفر إلى (نيويورك) ، بدلاً من (القاهرة) ؟!

أومأ (أدهم) برأسه إيجابًا ، دون أن ينبس ببنت شفة ، وإن حملت كل لمحة من وجهه علامات الحزم والإصرار ، فالتقط (سيرجى) هاتفه المحمول ، قائلاً :

ـ سأتخذ كل الترتيبات اللازمة إذن .

وضغطت أصابعه أزرار هاتفه ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ ولكننى أسجل اعتراضى على ما تفعله .

قال (أدهم) فى مزيج مدهش من السخرية والصرامة :

ـ اتخذ مكانك فى الطابور إذن .

ازداد انعقاد حاجبى (سيرجى) فى ضيق ، لم يمنعه من إلقاء أوامره ، لعمل كل الترتيبات اللازمة ، لتغيير مسار رحلة (أدهم) ..

أما (أدهم) نفسه ، فعلى الرغم من أن ملامحه كانت تحمل نفس الصرامة العنيدة ، إلا أن كل خلية من

خلايا مخه ، كانت تدرس ذلك الاحتمال ، الذى لم يغب عن ذهنه لحظة واحدة ، منذ بلغه خبر اختطاف (جيهان) ..

احتمال أن يكون كل هذا مجرَّد فخ لاستدراجه ..

وعلى الرغم من أن هذا الاحتمال الأخير كان يبلغ تسعين فى المائة من الاحتمالات بالفعل ، إلا أن هذا لم يكن ليمنعه من السفر إلى (نيويورك) ، بعد ساعة واحدة ..

فمهما كانت المخاطر ، التى تنتظره هناك ، فلابد أن يسعى لإنقاذ (جيهان) زميلته السابقة ، من قبضة الأوغاد الذين اختطفوها ، حتى ولو كان الثمن هو حياته نفسها ..

وفى صمت ، راح عقله يراجع كل ما اختزنه من معلومات ، عبر سنوات طوال ، عن (نيويورك) وعصاباتها ، ومنظماتها ، ونظام الشرطة بها ..

كل هذا ، دون أن يخطر ببـاله لحظة واحدة ، أن ساحة المعركة لن تكون فى (نيويورك) ..

بل ستكون بعيدًا عنها ..

بعيدًا جدًا .

* * *



٣ ـ انحراف مسار ..

« لقد أقلعت طائرته من (موسكو) بالفعل .. »

نطق الروسى العبارة بذلك التوتر ، الذى يلازمه كجزء من شخصيته ، وهو يتطلع إلى شاشة الاتصال ، التى بدت عليها صورة مستر (X) مع تلك الإضاءة الخلفية ، التى تجعل ملامحه كلها غارقة فى الظل ، فقال هذا الأخير فى صرامة :

ـ وماذا عن الجزء الخاص بك ؟! هل نفذ رجالك المطلوب ؟!

أجابه الروسى فى سرعة :

ـ بمنتهى الدقة ..

أومأ مستر (X) برأسه ، قبل أن يقول :

ـ عظيم .. عظيم .

تردّد الروسى لحظة ، ثم قال فى حذر :

ـ هل تعتقد أن الرجل سيفعل ما أمرنـاه به أيها الزعيم ؟!

أجابه مستر (X) فى صرامة :

ـ لو أنكم نفذتم ما أمرتكم به بدقة ، فسيفعل أى شىء فى الوجود .

قال الروسى فى حماسة :

ـ لقد فعلنا ما أمرتنا به تمامًا أيها الزعيم ، فقد أسندت الأمر إلى أحد أقوى رجالى وأغلظهم قلبًا ، حتى إنه قد ذبح شقيقه أمامه ، دون أن يطرف له جفن ؛ ليؤكد له أننا لا نعبث ، وأننا سننفذ كل ما هدّدناه بـه ، دون ذرة واحدة من الرحمة أو الشفقة .

تألقت عينا مستر (X) ، وهو يقول :

ـ سينفذ الأوامر إذن .

تردّد الروسى فترة أطول هذه المرة ، قبل أن يقول بكل الحذر :

ـ وهل سيفلح هذا ؟!

أجابه مستر (X) فى خشونة :

ـ سنعمل على أن يفلح .

ازدرد الروسى لعابه فى توتر ، وهو يسأل :

ـ فليكن .. ما الذى ينبغى أن نفعله الآن ؟!

فاجأه جواب مستر (X) ، وهو يقول بهدوء عجيب :

ـ لا شىء .

كرّر الرجل ، بكل دهشة الدنيا :

ـ لا شىء ؟!

تراجع مستر (X) ليسترخى فى مقعده ، وهو يجيب بنفس الهدوء :

ـ نعم .. لاشىء فى الوقت الحالى ، فالرحلة من (موسكو) إلى (نيويورك) تستغرق عددًا كبيرًا من الساعات ، وأفضل ما نفعله ، خلال كل هذا الوقت ، هو أن نترك الأمور تسير فى مسارها الطبيعى .

وصمت لحظة ، ليكتسى صوته بالحزم ، وهو يضيف :

ـ الذى رسمناه نحن .

وعلى الرغم من وجهه الغارق فى الظلام ، خُيِّل للروسى أن عينى مستر (X) قد تألقتا على نحو مخيف ..

مخيف ..

إلى أقصى حد ..

* * *

لم تكد سيارة (جوماتى) الفارهة تتوقف ، أمام مستشفى دونا (كارولينا) الخاص ، فى قلب (نيويورك) ، حتى هرع سائقها بحلته الرسمية ، ليفتح بابها لسيِّده ، الذى غادر السيارة فى هدوء ، ووقف يتطلع إلى المستشفى ، وهو يعدّل من هندام حلته الفاخرة الأنيقة ، ورباط عنقه زاهى الألوان ، قبل أن يتمتم بصوت شديد الخفوت ، ولهجة ملؤها المقت والشماتة :

ـ لا يمكنك أن تتصورى كم سيسعدنى مرأى الهزيمة فى عينيك الجميلتين ، يا عزيزتى دونا .

شدّ قامته ، والتقط نفسًا عميقًا ، قبل أن يدلف إلى المستشفى ، ويتجه مع طاقم حراسته الخاص إلى قسم الطوارئ ، الذى كانت ترقد فيه (جيهان) عند اختطافها ، ولم يكد يصل إليه ، حتى لمح دونا (كارولينا) هناك ، مع مساعدها (كارلو) يفحصان آثار الاقتحام العنيف ، فاتجه نحوهما مباشرة ، وهو يلوّح بذراعيه ، قائلاً :

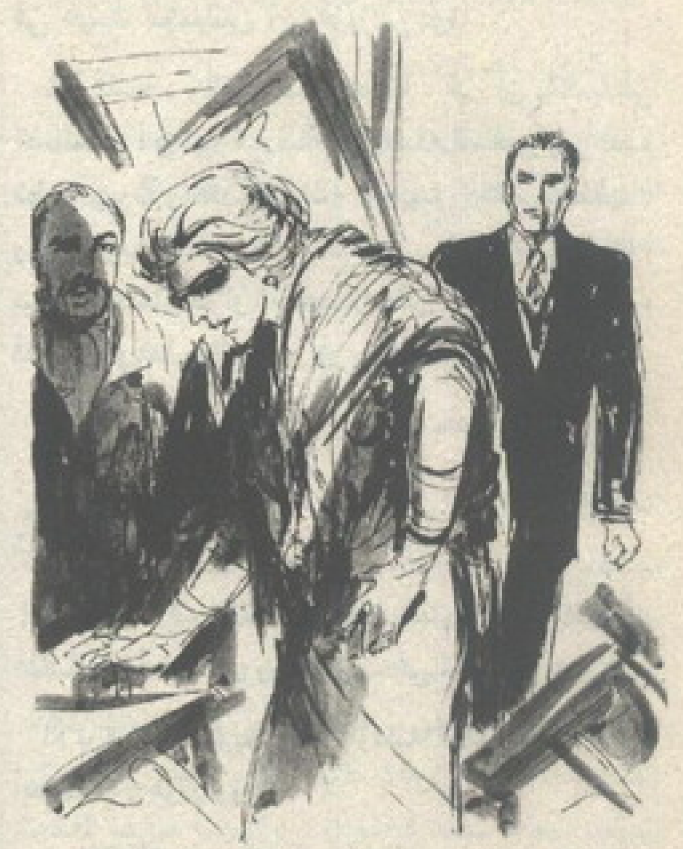
ـ دونا .. عزيزتى دونا .. كيف حدث هذا ؟!

أدارت عينيها إليه فى صرامة ، وهى تقول فى شىء من الحدة :

ـ عجبًا ! ألم تبلغك الأخبار بعد ؟! كنت أظن أن هذه المدينة لها عيون وآذان ، فى كل شبر منها !

لم يرق له أسلوبها هذا ، ولكنه أخفى مشاعره فى أعماقه ، وهو يقول :

ـ جئت أعرض خدماتى يا دونا .



ولم يكد يصل إليه ، حتى لمح دونا (كارولينا) هناك ، مع مساعدها (كارلو) يفحصان آثار الاقتحام العنيف ..

غمغمت فى توتر :

ـ عظيم أنك فعلت .

شعر بمزيج من الفرح والشماتة والظفر ، وهو يراها على هذا النحو ، ولكنه بذل جهدًا خرافيًا ؛ ليخفى كل هذا فى أعماقه ، وهو يقول :

ـ لقد اختطفوا تلك المصرية .. أليس كذلك ؟!

اعتدلت ، قائلة فى صرامة :

ـ لن ينعموا بانتصارهم هذا طويلاً .

سألها فى اهتمام :

ـ هل عرفت من هم ؟!

أجابه (كارلو) :

ـ ليس بعد .

أضافت دونا فى صرامة :

ـ ولكننا سنعرفهم ، إن عاجلاً أو آجلاً .

كان الأمر يحتاج إلى ما يفوق طاقة البشر ، ليكتم (جوماتى) ابتسامته هذه المرة ، وهو يقول :

ـ ولكن الأخبار تقول إنهم قد أتلفوا نظام المراقبة ، قبل أن يقتحموا المكان ، كما أنهم لم يتركوا خلفهم أثرًا يمكن تعقبه ، و ...

قاطعته دونا فى حزم صارم :

ـ هذا مستحيل :

توقف ، ليسألها فى حذر :

ـ ماذا تعنين ؟!

أجابته فى صرامة أكثر :

ـ أعنى أنه من المستحيل أن يفعلوا كل هذا ، ثم لا يتركون خلفهم أى أثر يمكن تعقبه .

قال فى حذر أكثر :

ـ ولكننا نفعل هذا دومًا يا دونا .

قالت فى حدة :

ـ خطأ يا (جوماتى) .. خطأ .. حتى نحن نترك خلفنا آثارًا يمكن تعقبها ، ولكننا ندفع ثمن عدم فعل هذا .. نحن نشترى رجال الشرطة ، والقضاء ، والطب الشرعى .. والمحلفين أيضًا ، إذا ما بلغ الأمر هذا الحد .

ثم مالت نحوه ، متابعة فى صرامة ، وهى تتطلع فى تحد إلى عينيه مباشرة :

ـ أما عندما تنعكس الأدوار ، ونصبح نحن المجنى عليهم ، فالأمر يختلف .

وعلى الرغم من كونها امرأة جميلة ، ومن نظريته الصقلية العريقة ، حول عدم صلاحية النساء للمناصب القيادية ، شعر برجفة باردة تسرى فى أوصاله ، مع نظراتها الصارمة المباشرة ، فتمتم فى توتر وخفوت :

ـ بالتأكيد يا دونا .. بالتأكيد .

ظلَّت تتطلَّع إلى عينيه بضع لحظات ، بنفس الصرامة ، وكأنها تحاول أن تستشفَّ ما يدور فى أعماقه ، قبل أن تعتدل ، قائلة فى حزم :

ـ لقد أرسلت فى طلب فريق بحث خاص ، وأمرت بإغلاق المكان كله ، حتى ينتهى الفريق من فحص كل سنتيمتر هنا ، والعثور على كل الأدلة الممكنة ، مهما استلزم هذا من جهد ، أو أنفق من مال .

انعقد حاجباه ، وهو يقول :

ـ وهل تعتقدين أن هذا سيفلح ؟!

أجابته فى حزم :

ـ بالتأكيد .

ثم التقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تتابع :

ـ والآن هيا بنا .. هناك حفل لابد أن نذهب إليه ، ولست أحب أن أفسد السهرة على الآخرين .

ورمقت (جوفانى) بنظرة جانبية ، مستطردة :

ـ فهذه واجبات الزعيم .

لحتقن وجهه ، على الرغم من كل محاولاته لإخفاء مشاعره ، فى حين تجاوزته هى فى اعتداد عجيب ، وهى تشير بسبَّابتها لمساعدها ، مكرِّرة :

ـ هيا بنا .

غادرت المكان برأس مرفوع ، وخلفها (كارلو) ، فعضَّ (جوفانى) شفته السفلى فى عصبية ، وهو يتمتم فى مقت :

ـ أيتها الـ ...

بتر كلمته قبل أن تكتمل ، خشية أن يبلغ بعضها مسامعها ، بأية صورة من الصور ، ثم أغلق عينيه فى قوة ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يقول لطاقم حراسته فى حدة :

ـ هيا .. فلنذهب إلى الحفل .

نطقها ، وفى كل ذرة من كيانه تشتعل فكرة واحدة .

لقد تجاوزت دونا (كارولينا) كل حدود قدرته على الاحتمال ..

وعليه أن يزيحها من طريقه ..

وأن يتبوأ مقعد الزعامة ..

بأسرع وقت ممكن ..

وبأية وسيلة فى الوجد ..

مهما كان الثمن ..

* * *

رفع مدير المخابرات المصرية عينيه ، إلى معاونه الأوّل ، الذى قدّم إليه برقيـة عاجلـة ، واردة مـن العاصمة البريطانية (لندن) ، وهو يقول فى حزم :

- طائرة سيادة العميد (أدهم) تزوّدت بالوقود فى (لندن) ، ثم واصلـت رحلتهـا إلـى (نيويـورك) ياسيّدى .

التقط المدير البرقية ، وطالعهـا فى اهتمـام ، قبل أن يسأل :

- هل راجعتم بيانات الطاقم ؟!

أومأ معاونه برأسه إيجابًا ، وقال :

- كلها مطابقة لما أبلغتنا بـه (موسكو) ، ولم يغادر أحدهم الطـائرة ، فى أثنـاء تزويدها بالوقود ، وفقًا للأوامر .

حكّ المدير ذقنه بسبّابته وإبهامه بضع لحظـات ، قبل أن يتمتم :

- عظيم .

تطلّع إليه معاونه بضع لحظات فى صمت ، قبل أن يسأله :

- سيّدى .. إنك لاتشعر بالارتياح .. أليس كذلك ؟!

رفع المدير عينيه ، مواصلاً صمتـه لبعض الوقت ، قبل أن يشير بيده ، قائلاً :

- الأمر يبدو كفخ واضح ، وعلى الرغم من هـذا ، فـ (ن - ١) يصرّ على الذهاب ، للبحث عن زميلتـه السابقة وإنقاذها .

أشار المعاون بيده ، قائلاً :

- أنت تعرف طبيعة سيادة العميد (أدهم) ياسيّدى .

نهض المدير من مقعده ، وهو يقول فى توتر :

- أعرفها ، ولكننى أحتملها فى صعوبة .

ابتسم المعاون ، قائلاً :

- المقابل يستحق بالتأكيد يا سيّدى .

عقد المدير كفيه ، وهو يقف أمام النافذة الكبيرة العاكسة فى مكتبه ، وصمت بضع لحظات ، قبل أن يغمغم :

- أنت على حق .

ثم استدار إلى معاونه ، متابعًا :

- (ن - ١) ينفذ عمليات ومهام مستحيلة ، لايمكن أن ينجح فيها سواه ، ثم إنه مستعد لبذل حياته ، دون أدنى تردُّد ، من أجل الوطن .

غمغم المعاون :

- كلنا هذا الرجل يا سيادة المدير .

أومأ المدير برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

- بالتأكيد .

وبدا شاردًا إلى حد ما ، وهو يعود إلى مقعده فى صمت ، قبل أن يقول فى حزم :

- أريد أن يظلّ أمر سفر (ن - ١) إلى (نيويورك) سرًا ، وأن يندرج تحت بند السرية المطلقة أيضًا ، وبالذات بالنسبة للمقدَّم (منى) ، والسيِّد (قدرى) ، وعضوى الفريق (شريف) و(ريهام) .

قال المعاون فى حسم :

- بالتأكيد يا سيِّدى .. بالتأكيد .

مطَّ المدير شفتيه ، قائلاً :

- لو أنهم علموا بالأمر ، لهرعوا على الفور إلى (نيويورك) ، على الرغم من كل إصاباتهم ، وهذا

لن يفيد (ن ـ ١) ، إذا ما احتدمت الأمور ، بل سيصبح بمثابة عقبة ، تحول بينه وبين سرعة وحرية الحركة .

تمتم المعاون :

ـ نتعشَّم ألا تحتدم الأمور هناك يا سيادة المدير .

هزَّ المدير رأسه ، قائلاً فى صرامة :

ـ ستحتدم حتمًا ؛ لأن (ن ـ ١) ذاهب للبحث عن زميلته السابقة ، ومن اختطفوها لن يستقبلوه بالورود بالتأكيد .

تردَّد المعاون لحظة ، قبل أن يسأل :

ـ هل ترسل فريقًا للمعاونة يا سيِّدى ؟!

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ـ لا نريد تحويل الأمر إلى حرب محدودة .. هذا سيثير غضب الأمريكيين بشدة هذه الأيام .

ثم تراجع فى مقعده ، قبل أن يضيف فى حزم :

ـ أبرق شفريًا إلى رجال مكتبنا فى (نيويورك) ، وأبلغهم أن يكونوا على أهبة الاستعداد ، بحيث لايغيب (ن ـ ١) عن أبصارهم لحظة واحدة ، منذ وصول طائرته إلى (نيويورك) ، وحتى يعود إلى (القاهرة) .. لا أريدها حربًا صغيرة ؛ فهذا لن يروق قط للأمريكيين ، وبالذات فى هذه الأيام .. عليهم فقط أن يتتبعوا خطواته ، وأن يستعدوا لأى تدخل محدود تفرضه الظروف ، وبخاصة لو حاول مختطفو (جيهان) إيقاعه فى فخ ما .

قال المعاون فى حماسة :

ـ سأرسل هذه الأوامر إلى (نيويورك) فورًا ياسيِّدى .

تنهَّد المدير فى عمق ، وحاجباه ينعقدان فى شدة ، وهو يغمغم فى توتر :

ـ أتعشَّم أن يفلح هذا .

كانت فكرة جيِّدة ، وخطة ممتازة لحماية (أدهم صبرى) طوال الوقت ، لولا ثغرة واحدة ..

أنها تبدأ منذ وصول طائرة (أدهم) إلى (نيويورك) ..

وتلك الطائرة ، التي تحلق الآن فوق المحيط الأطلنطي ، لن تبلغ (نيويورك) ..

أو حتى الولايات المتحدة الأمريكية كلها ..

أبدًا .

* * *

« هل استغرقوا جميعًا في النوم ؟! »

ألقى مساعد الطيار الروسي السؤال ، في توتر ملحوظ ، جعل قائد الطائرة يبتسم ، قائلاً :

ـ بالتأكيد يا عزيزي (جوزيف) .. لقد ظلوا مستيقظين ومتأهبين طوال الليل ، وقادوا الطائرة من (موسكو) إلى (لندن) ، ومن الطبيعي أن ينهكهم التعب ، في هذه المرحلة .

حاول (جوزيف) هذا أن يبتسم ، وهو يغمغم :

ـ هذا أفضل .. أفضل بالتأكيد .

تطلّع إليه قائد الطائرة من ركني عينيه في حيرة ، قبل أن يسأله في قلق :

ـ ماذا دهاك يا (جوزيف) ؟! إنك تبدو شاحبًا على غير المعتاد اليوم ؟! لماذا قبلت القيام بهذه المهمة ، لو أنك تعاني من المرض أو الألم ؟!

صمت (جوزيف) طويلاً ، وازدرد لعابه في عصبية واضحة ، قبل أن يسأل قائد الطائرة بغتة :

ـ ما رأيك في قدح من القهوة ؟!

ارتفع حاجبا قائد الطائرة في دهشة ، وهو يقول :

ـ القهوة ؟!

ثم انعقد الحاجبان أنفسهما في صرامة ، مع استطرادته :

ـ لست أظن أن القهوة هي ما يناسب توترك هذا ، فمادة الكافيين فيها ، ستنبه جهازك العصبي أكثر وأكثر(*) ، وهذا آخر ما تحتاج إليه .

(*) الكافيين : مادة بلورية عديمة اللون ، لها تأثير قلوي ، وتوجد بكثرة في البن والشاي والكولا ، وبنسبة ضئيلة في الكاكاو ، كما يمكن تحضيرها بالتخليق الكيماوي ، من حمض البوليك ، وهي مادة منبهة للجهاز العصبي ، ومدرة للبول ، وتحتوي أوراق الشاي على نسبة أكبر من الكافيين ، على عكس المتصور .

حلّ (جوزيف) حزام مقعده ، قائلاً فى عصبية :

ـ كلاً .. إننى مرهق فحسب ، والقهوة ستجعلنى أنتبه أكثر .

غادر المكان على نحو حاد ، جعل قائد الطائرة يقول لمراقب الرادار فى توتر :

ـ إنه لا يبدو طبيعيًا أبدًا اليوم .. كان الأفضل أن يعتذر عن الرحلة .

غمغم مراقب الرادار ، محاولاً التهوين من الموقف :

ـ ربما يعانى بعض التوترات العائلية .. لقد شاهدته يطالع صورة زوجته وابنه مرتين ، خلال الساعة الأخيرة .

مطّ قائد الطائرة شفتيه ، مغمغمًا فى ضيق :

ـ كان ينبغى أن يعتذر .

فى نفس اللحظة ، التى غمغم فيها بعبارته ، كان

(جوزيف) يلقى نظرة شديدة التوتر ، على طاقم الطائرة ، الذى تولّى المسئولية ، خلال النصف الأوّل من الرحلة ، وقد غرق أفراده فى سبات عميق ، فى حجرة خلفية خاصة ، وغمغم فى توتر أكثر :

ـ سامحونى يا رفاق .

تلفّت حوله فى عصبية ، ليتأكّد من أن مضيفة الطائرة الوحيدة لايمكنها رؤيته ، من هذه الزاوية ، قبل أن يخرج من جيبه أسطوانة مطاطية صغيرة ، جذب عنها غلافًا رقيقًا ، قبل أن يلصقها بالجدار ، وهو يسدّ أنفه فى إحكام ، ثم غادر الحجرة فى سرعة ، وأغلق بابها خلفه ، ليستند إلى الجدار ، ويلهث فى انفعال ، متمتمًا :

ـ سامحونى يارفاق .. سامحونى .. هذا فقط سيجعلكم تنامون ، حتى ينتهى المطلوب كله .

راح يلتقط أنفاسه فى قوة ، ويحبسها فى صدره ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه ، حتى تمالك نفسه ،

فشدّ قامته ، واتجه إلى مطبخ الطائرة ، وأعدّ أربعة أقداح من القهوة ، تلفت حوله مرة أخرى ، قبل أن يلقى فى أحدها قرصًا مخدرًا ، وهو يتمتم :

- أنا مضطر .

ثم حمل الأقداح الأربعة ، واتجه نحو (أدهم) ، الذى يجلس وحده ، فى منتصف الطائرة ، وناوله القدح الذى دسّ فيه القرص المخدّر ، وهو يرسم على شفتيه ابتسامة كبيرة ، قائلاً :

- تصوّرت أنك بحاجة إليه .

هتفت المضيفة ، معترضة فى مرح :

- لقد سرقت وظيفتى .

انتزع من أعماقه ضحكة مغتصبة ، قبل أن يقول :

- ولماذا لاتؤدين عملك بكفاءة ، حتى لايسرقه أحد .

قالت ضاحكة :

- سأحرص على هذا ، من الآن فصاعدًا .

ثم غمزت بعينها ، مستطردة :

- على الأقل لأحظى بتقديم القهوة ، لراكبنا الوحيد الوسيم .

غمغم (أدهم) ، وهو يبتسم فى وقار :

- أشكرك .

ثم التقط قدح القهوة من (جوزيف) ، مضيفًا :

- وأشكرك أنت أيضًا على القهوة ، فقد كنت بحاجة إليها بالفعل .

غمغم (جوزيف) :

- هذا ما توقّعته .

انتظر حتى بدأ (أدهم) يرتشف القهوة بالفعل ، قبل أن يواصل طريقه إلى كابينة القيادة ، قائلاً :

- إذا ما أردت شيئًا ، وتقاعست مضيفتنا الحسناء عن تقديمه لك ، فاطلبنى على الفور .

ابتسم (أدهم) مجاملاً ، وارتشف رشفة أخرى من قدح القهوة ، مغمغمًا :

ـ أشكرك .

أما المضيفة ، فهتفت فى مرح :

ـ هناك ما يمكنك تقديمه .

لوّح (جوزيف) بيده ، دون أن يلتفت إليها ، ثم دلف إلى كابينة القيادة ، ودفع بابها بقدمه ، وهو يقدّم القهوة لقائد الطائرة ، ومراقب الرادار ، فالتقطها منه الأوّل ، وهو يقول فى حزم :

ـ مازلت أصرّ على أن هذا خطأ .

غمغم (جوزيف) :

ـ ربما .

ابتسم مراقب الرادار ، وهو يقول :

ـ تبدو أكثر هدوءًا وتماسكًا .

صمت (جوزيف) لحظة ، قبل أن يقول :

ـ ربما لأن الأمور تسير على ما يرام .

سأله قائد الطائرة فى حذر :

ـ أية أمور ؟!

غمغم (جوزيف) فى صرامة ، وهو يستدير ليغلق باب الكابينة من الداخل ، فى إحكام شديد :

ـ كل الأمور .

لاحظ قائد الطائرة ما فعله ، فسأله فى توتر :

ـ لماذا هذا بالضبط ؟!

مال (جوزيف) ليلتقط مسدس إشارة الطوارئ ، وهو يقول :

ـ احتياطات أمن .

سأله قائد الطائرة ، فى توتر أكثر :

ـ أى أمن ؟!

اعتدل (جوزيف) بحركة حادة ، ليهوى بالمسدس على رأس مراقب الرادار ، هاتفًا فى عصبية :

- أمنى أنا .

انتفض جسد قائد الطائرة فى عنف ، مع سقوط مراقب الرادار فاقد الوعى ، وهتف بكل توتر الدنيا ، وهو يتشبَّث بمقعده :

- ولكن لماذا يا (جوزيف) ؟! لماذا ؟!

أدار (جوزيف) فوهة المسدس الضخمة إليه ، قائلاً فى عصبية بالغة :

- أنا مضطر .

هتف به قائد الطائرة :

- ولماذا ؟!

ازدرد (جوزيف) لعابه فى صعوبة ، وهو يجيب ، وكل ذرة فى كيانه تنتفض انفعالاً :

- إنهم يحتجزون زوجتى وابنى .

سأله قائد الطائرة فى توتر ، وهو يحاول بلوغ زر جهاز الاتصال خلسة :

- من هؤلاء ؟!

هزَّ (جوزيف) رأسه فى حدة ، قائلاً بكل توتره :

- لست أدرى من هم ، ولكنهم وحوش .. وحوش لا تعرف الرحمة ..

واغرورقت عيناه بالدموع ، وهو يضيف فى مرارة :

- لقد ذبح أحدهم شقيقى أمام عينىَّ ، دون أن يطرف له رمش ، وأقسم أن يفعل المثل بزوجتى وابنى الوحيد ، لو لم أنفذ أوامرهم بمنتهى الدقة .

قال قائد الطائرة ، وهو يواصل محاولته ، لبلوغ جهاز الاتصال :

- وأوامرهم هى قتل رجل المخابرات المصرى .. أليس كذلك ؟!

هتف (جوزيف) بحدة :

- لا ..

وحاول أن يزدرد لعابه ، قبل أن يتابع فى عصبية بالغة :

ـ لن يموت أحد هنا .

بلغت أصابع قائد الطائرة زر جهاز الاتصال ، وهو يقول :

ـ ما معنى هذا ؟! هل ستفعل كل ما فعلت ، دون أن تظفر برجل المخابرات المصرى ؟! لا تقل لى : إنهم يريدونه على قيد الحياة ؟!

أجابه (جوزيف) بمنتهى العصبية :

ـ لا شأن لى بما يريدونه منه .. سأنفذ ما أمرونى به فحسب .

مع آخر حروف كلماته ، لمح ما يفعله قائد الطائرة ، فصاح فى غضب :

ـ لقد خدعتنى .

ثم انقضّ عليه فى شراسة انفعالية ، وهوى بالمسدس

على رأسه فى عنف ، فانتفض جسد الرجل كله ، قبل أن يسقط رأسه على صدره ، ويفقد وعيه ، ويسيل خيط من الدم على جبهته ..

وبكلمات ترتجف من فرط الانفعال ، غمغم (جوزيف) :

ـ سامحنى .. سامحونى جميعًا .

وعاد يلتقط أنفاسًا متلاحقة ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه ، قبل أن يجلس على مقعده ، ويربط حزامه فى إحكام ، ثم يمسك عجلة القيادة ، ويلغى عمل الطيار الآلى ، متمتمًا فى مرارة :

ـ ليس أمامى سوى تنفيذ ما أمرونى به .

قالها ، ثم راح يتعامل مع أجهزة القيادة أمامه ، لينحرف بمسار الطائرة ، بزاوية لا يمكن أن يشعر بها راكبها الوحيد .

زاوية جعلته ينطلق بها نحو الجنوب الغربى ، بدلاً من الغرب ..

وبزاوية كهذه ، صار من المستحيل أن تصل الطائرة إلى أية بقعة ، داخل حدود الولايات المتحدة الأمريكية ..

من المستحيل تمامًا ..

وبكل المقاييس .

* * *



٤ - السقوط ..

أشعلت (لورا) سيجارتها ، واسترخت فى مقعدها ، تنفث دخانها فى بطء وعمق ، قبل أن تغمغم :

- رائعة هى خطتك بالفعل يا مستر (X) .

وصمتت بضع لحظات ؛ لتستعيد تفاصيل الخطة ، قبل أن تضيف :

- لو سارت كما خططت لها .

قالتها ، ونفثت دخان سيجارتها مرة أخرى ، ثم اعتدلت فى مجلسها ، ومالت تضغط زر جهاز الاتصال ، متمتمة :

- سنرى على أية حال .

مع ضغطتها ، أضيئت شاشة جهاز الاتصال ، وظهرت عليه صورة مستر (X) ، بتلك الإضاءة الخلفية ، التى

تغرق ملامحه فى ظلام غامض ، وانبعث صوته الغاضب ، وهو يقول :

ـ تأخرت فى الاتصال يا (لورا) .

التقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، فى هدوء شديد ، قبل أن تقول :

ـ أنت تعرف النساء .. يحلو لهن دومًا أن ينتظرهن الرجال فى لهفة .

زمجر ، قائلاً :

ـ وماذا عن ذلك الحديث ، الخاص بقدرتهن على التنظيم والتدبير .

ابتسمت ، وهى تنفث دخان السيجارة ، قائلة :

ـ هذا أمر آخر .

بدا من الواضح ، من فترة الصمت ، التى غرق فيها ، أنه يحاول كتمان غضبه ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ ماذا فعلت مع جنرال (ألينترو) ؟!

انعقد حاجباها ، وهى تقول فى خشونة :

ـ إنه رجل حقير ، يتصورُ أنه ساحر نساء ، وهو مجردُ فلاح خشن فظ .

كرّر مستر (X) ، فى صرامة أكثر :

ـ ماذا فعلت معه ؟!

استرخت مرة أخرى فى مقعدها ، ولوّحت بأصابعها الممسكة بسيجارتها ، وهى تجيب فى غرور :

ـ سينفذ كل ما طلبته منه .

سألها فى اهتمام :

ـ هل أعدّ ذلك المهبط ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وقالت :

ـ لقد أعدّ كل شىء لاستقبال الشحنة .

سألها :

ـ هل أخبرته عنْ طبيعتها ، ومايمكن أن تسببه من متاعب ؟!

غمغمت :

ـ بالتأكيد .

ثم اعتدلت ، مضيفة فى جذل :

ـ لقد أعدّ جيشًا كاملاً لمواجهتها .

ران الصمت بضع لحظات أخرى ، على شاشة الاتصال ، قبل أن يقول مستر (X) فى توتر :

ـ أرجو أن يكون قد استوعب خطورة الأمر جيدًا .. لا أريد أية حماقات ، أو استهتار بقوة الخصم ، يمكن أن تفسد معها الخطة كلها .

ابتسمت ، قائلة :

ـ اطمئن .. لقد شرحت له أبعاد الموقف كله ، وهو قام بتحرياته الخاصة ، وأدرك طبيعة خصمه ، بعد أن راجع بنفسه ملف صراعه القديم ، مع (بانشو سيلازر) (*) ..

(*) راجع قصة (وكر الإرهاب) .. المغامرة رقم (٨٠)

قال فى صرامة :

ـ هناك عشرات الملفات الأخرى .

أومأت برأسها إيجابًا ، متمتمة :

ـ إنه يعلم هذا .

ثم نفثت دخان سيجارتها ، لتسأله فى اهتمام :

ـ وما الموقف الآن فوق الأطلنطى ؟!

أجابها فى حزم :

ـ رجلنا (جوزيف) انحرف بمسار الطائرة بالفعل ، وسيطر على الموقف كله ، وهو فى طريقه الآن لنقطة الهبوط المحدّدة .

سألته فى اهتمام :

ـ وماذا عن الشحنة ؟!

أجاب فى بطء :

ـ يقول : إنها نائمة فى عمق ، بعد أن دسّ لها جرعة مخدّرة قوية .

ارتفع حاجباها فى دهشة ، وهى تقول :

ـ لماذا اللجوء إلى خطة معقّدة إذن ؟!

سألها مستر (X) فى توتر :

ـ ماذا تعنين ؟!

لوّحت بيدها ، قائلة :

ـ أعنى أننا نتحرك فى قارتين ، وندفع كومة من الملايين لجنرال مكسيكى حقير ؛ ليعدّ جيشًا جرارًا ، لمواجهة رجل واحد ، وندير عن بعد معركة عنيفة معقّدة ، فلماذا كل هذا ، مادام ذلك الروسى قد نجح فى تخدير رجل المخابرات المصرى ؟! لماذا لا يطلق النار على رأسه مباشرة ، وهو غارق فى سباته العميق ، وينهى العملية كلها فى دقيقة واحدة .

قال فى صرامة خشنة :

ـ لا نريد المجازفة بفشل العملية .

هتفت :

ـ وما المجازفة فى هذا ؟!

مال إلى الأمام ، مجيبًا بقسوة :

ـ الرجل الذى تتحدّث عنه ليس قاتلاً محترفًا .. إنه مجرّد مساعد طيّار ، أجبرناه على تغيير مسار طائرة ، ولو أننا حاولنا دفعه لارتكاب جريمة قتل ، فربما تنهار أعصابه ، ويفشل فى أداء مهمته ، فينهار كل شىء .

قالت فى عناد :

ـ ولكنه خصم مخدّر .

قال فى حدة :

ـ لا يمكنك التيقّن .

مطّت شفتيها ، وألقت سيجارتها أرضًا فى حنق ، وهى تقول :

ـ تتحدّث دومًا وكأننى لا أجيد شيئًا على الإطلاق .

قال فى صرامة :

ـ لو أنك لا تجيدين شيئًا لما أصبحت عضوًا فى مجلس منظمة (X) .. إننى لا أسعى لإنشاء ناد للحمقى ، بل واحدة من أقوى المنظمات الخاصة فى العالم .

مطّت شفتيها مرة أخرى ، وهى تقول فى سخط :

ـ أشكرك على مجاملتك الرقيقة .

اعتدل ، قائلاً فى غلظة :

ـ لا مجاملات فى عالمنا هذا .

أشعلت سيجارة أخرى ، فى عصبية بالغة ، وهى تسأله :

ـ مَن من أعضاء المجلس سيشرف على معركة الجنرال (ألنزو) ؟!

تراجع فى مقعده ببطء ، دون أن يجيب سؤالها ، فتابعت بنفس العصبية :

ـ أعتقد أنه ذلك الإيطالى ؛ فهو أقربنا إلى موقع الهبوط نسبيًا ، ثم إنه المستفيد رقم واحد مما فعله .

أجابها مستر (X) فى صرامة :

ـ خطأ .. نحن المستفيد رقم واحد من كل هذا .

لوّحت بيدها ، قائلة :

ـ ولكنه سيصبح الأب الروحى ، لكل منظمات (المافيا) ، فى الولايات المتحدة الأمريكية كلها .

قال فى صرامة أكثر :

ـ ونحن سنصبح أقوى منظمة ، فى العالم أجمع .

تنهّدت ، ونفثت دخان سيجارتها فى عصبية ، قائلة :

ـ فليكن .. هذا لم يجب سؤالى .. من منا سيشرف على تلك الحرب الصغيرة ؟!

أجابها فور انتهاء كلماتها :

ـ أنت .

انتفض جسدها فى عنف ، وهى تهتف :

ـ أنا ؟!

أجابها فى حزم :

ـ نعم يا (لورا) .. أنت .. تأثير فتنتك على ذلك المكسيكى ، سيضمن خضوعه لنا ، وتنفيذه لأوامرنا طوال الوقت .

قالت فى حدة :

ـ إننى أفضّل الموت ، على التعامل مع وغد حقير مثله .

زمجر مرة أخرى ، وبدا صارمًا فظًا ، وهو يقول :

ـ تتحدثين كامرأة عادية ، وليس كواحدة من زعيمات منظمة (X) .

زفرت بكل توتر الدنيا ، ونفثت دخان سيجارتها مع زفراتها ، قبل أن تقول :

ـ ماذا تريد منى بالضبط أيها الزعيم ؟!

صمت لحظة ، ثم أجابها بكل صرامته :

ـ أن تتمَّ العملية بنجاح .

التقطت نفسًا عميقًا من سيجارتها ، ونفثت الدخان فى شاشة الاتصال مباشرة ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ سأبذل كل جهد ممكن ؛ لتحقيق هذا الهدف .

واكتست ملامحها الجميلة بصلابة غير عادية ، وهى تضيف :

ـ مهما كان الثمن ..

ولم يعلِّق مستر (X) على عبارتها أو موقفها ..

فقط أنهى الاتصال ، وهو يشعر بأنه أمام امرأة أخرى ..

امرأة مختلفة ..

وقوية ..

للغاية ..

* * *

فجأة ، استيقظ (أدهم) ..

لم يكن نائمًا بالمعنى المعروف ، ولكن جسده المرهق ، من ساعات السفر الطويلة ، كان قد استرخى فى مقعده ، فى حين راح عقله يسبح بعيدًا ، مستعيدًا ذكريات عمله مع (جيهان)(*) وإصابتها(**) ، وحتى لاختطافها من مستشفى دونا (كارولينا) ، زعيمة منظمات (المافيا) ، فى (إيطاليا) و(أمريكا) .

وخلال فترة استرخائه الطويلة ، كان ذهنه يدرس الموقف كله ، فى تروٍ ، ودقة ، وعناية ، وإحكام ..

(*) راجع قصة (الإعصار الأحمر) .. المغامرة رقم (١٠٤) .

(**) راجع قصة (عمالقة الجبال) .. المغامرة رقم (١١٧) .

وبدا له من الواضح ، أن جهة قوية قد قامت بتلك العملية ..

جهة لديها من القوة والجرأة ما يكفى ، لتحدى منظمة (المافيا) وزعيمتها ، على هذا النحو السافر المستفز ..

جهة تهدف إليه هو بالتأكيد ..

كل شىء يؤكد هذا ..

كل شىء يؤكد أن الهدف الرئيسى ، من اختطاف (جيهان) ، هو استفزاز مشاعره ، ودفعه إلى السفر إلى (نيويورك) ..

لقد أدرك هذا من البداية ..

وأدرك أيضًا أنه ليس لديه خيار ..

حتى ولو كان هذا هو هدفهم ، فمن المستحيل أن يتخلى عن (جيهان) لحظة واحدة ..

لقد استفزوه ..

وتحدوه ..

وقبل هو التحدى ..

قبله دون أن تكون لديه ذرة واحدة من الشك ، فى أنهم ينتظرونه هناك ..

فى قلب (نيويورك) ..

أو ربما فى مطارها نفسه ..

وعليه أن يستعد لهذا .

وبكل قوته ..

صحيح أن (سيرجى) قد أكد له أن موعد رحلته سرى للغاية ، ولكن خبرته علمته أن الحفاظ على السرية المطلقة ، فى عمل يضم أكثر من ثلاثة أفراد ، هو أمر عسير ..

عسير للغاية ..

أو هو مستحيل !

لذا ، فهناك ألف احتمال واحتمال ، فى أنهم يعلمون بأمر رحلته الآن ..

عليه أن يضع خطته كلها ، استنادًا إلى هذا الاحتمال ، و ...



وبحركة مباغتة ، فتح (أدهم) عينيه ، وأدارهما فيما حوله ، وهو يعتدل فى مقعده بحركة حادة ؟! ..

وعند هذه النقطة ، استيقظ عقله بغتة ..

لم يكن هناك مؤثِّر خارجي محدود ، يمكن أن يؤدِّى إلى هذا ، ولكنه شيء فى أعماقه هو ..

شيء فى أعماق رجل مخابرات محنك خبير ، خاض عشرات الصراعات العنيفة ، مع عشرات القوى المعادية ..

شيء جعل حواسه كلها تنتبه دفعة واحدة ، وكأنما أضيء فى أعماقه مصباح أحمر خاص ، للتنبيه إلى خطر ما ..

وبحركة مباغتة ، فتح (أدهم) عينيه ، وأدارهما فيما حوله ، وهو يعتدل فى مقعده بحركة حادة ، جعلت المضيفة تسأله فى قلق :

ـ أهناك ما يزعجك يا سيِّدى ؟!

ألقى (أدهم) عليها نظرة سريعة فاحصة ، وكأنما يتأكد من أنها لا تحمل أية أسلحة .

ثم أدار بصره إلى قدح القهوة ، الذى لم يتناول منه سوى رشفتين ، وبعدها مدَّ بصره عبر ممر الطائرة ، و ...

وانتبه فجأة إلى الظلال ..

إلى زاوية الضوء ، الذى يدخل عبر النافذة ..

وبلحظة واحدة ، استوعب عقله الموقف كله ، فهبَّ من مقعده ، هاتفًا فى صرامة شديدة :

ـ إلى أين تتجه هذه الطائرة ؟!

ارتبكت المضيفة ، وهى تقول فى حيرة :

ـ إلى الولايات المتحدة الأمريكية يا سيِّدى .

اندفع فجأة عبر ممر الطائرة ، هاتفًا :

ـ هراء .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، عندما بلغ كابينه القيادة ، وحاول فتحها فى قوة وهو يهتف فى صرامة :

ـ افتح كابينه القيادة أيها الطيَّار ، لدى سؤال يحتاج إلى جواب عاجل ومباشر .

أدهشها ألا يستجيب له أحد ، من داخل كابينة القيادة ، ولكنها أسرعت إليه ، قائلة فى ارتباك شديد :

ـ سيِّدى .. عد إلى مقعدك ، وسأتحدث إلى قائد الطائرة ، و ...

التفت إليها (أدهم) ، يسألها مقاطعًا فى حزم :

ـ ألا توجد أية أسلحة للطوارئ ، على متن هذه الطائرة ؟!

اتسعت عيناها مرة أخرى ، وهى تهتف مستنكرة :

ـ أسلحة ؟!

أمسك كتفيها فى قوة ، صائحًا :

ـ نعم .. أسلحة ! هناك حتمًا سلاح ما ، فى مكان ما هنا .. لايمكن أن تقلع طائرة تابعة للمخابرات الروسية ، فى مهمة خاصة كهذه ، دون أن تحمل معها بعض الأسلحة للطوارئ .. أين تلك الأسلحة .

ارتجف صوتها ، وهى تجيب :

ـ لست أدرى .. إنها مسئولية الطاقم .

بدا صوته أكثر صرامة ، وهو يسألها :

ـ أين الطاقم الأوَّل ؟!

شفَّ صوتها عن الارتياع الشديد ، الذى ملأ نفسها ، وهى تجيب :

ـ هناك .. داخل كابينة خاصة ، فى نهاية الطائرة .

تركها ، واندفع يعدو عبر الطائرة ، إلى تلك الكابينة الخلفية ، فى حين هتفت هى فى ذعر ، وهى تطرق باب كابينة القيادة فى قوة :

ـ ماذا يحدث هنا ؟! رباه ! ماذا يحدث هنا ؟!

بلغت طرقاتها مسامع (جوزيف) وضاعفت من عصبيته وتوتره ، إلا أنه بذل جهدًا خرافيًا ؛ للسيطرة على أعصابه ، وهو ينخفض بالطائرة ، مع انطلاقه عبر خليج (المكسيك) فى طريقه إلى الساحل الشرقى للدولة نفسها ، حتى لا ترصده أجهزة الرادار العادية هناك ، وتمتم بكل انفعالاته :

ـ لا .. لايمكن أن تفشل الخطة الآن .. لقد اقتربنا من الهدف .. لايمكن أن أخسر زوجتى وابنى ، بسبب نصف ساعة فحسب !

تمنى لحظتها لو أنه استطاع أن يضاعف من سرعة

الطائرة ؛ لينتهى من هذه المهمة الشاقة الثقيلة ، التى كانت تنسف أعصابه نسفًا ، ولكنه بذل جهدًا خرافيًا ، للسيطرة على الموقف كله ، وهو يواصل الانخفاض ، وينطلق نحو الجنوب الغربى ، متجاوزًا المسار المتفق عليه ، وكأنما لم يعد يعنيه سوى بلوغ ساحل (المكسيك) .. وبأى ثمن ..

أما (أدهم) ، فقد اقتحم كابينة الراحة ، فى مؤخرة الطائرة ، ولم يكد يفعل ، حتى التقط أنفه رائحة تلك المادة ، التى تملأ المكان ، فتراجع هاتفًا :

ـ رباه ! إنها مؤامرة .

أغلق الباب فى سرعة ، فى نفس الوقت الذى هتفت فيه المضيفة فى ذعر :

ـ ماذا يحدث هنا ؟! لماذا لايجيبون طرقاتى ، فى كابينة القيادة ؟!

سألها (أدهم) ، وهو يسرع نحو مطبخ الطائرة :

ـ ما اسم ذلك الشاب ، الذى قدَّم لى القهوة ؟!

أجابته بكل توتر الدنيا :

- (جوزيف) .

هتف ، وهو يفتح كل أدراج المطبخ :

- إنه هو .

سألته فى هلع :

- هو ماذا ؟!

لم يهتمّ بإجابة سؤالها ، وهو ينحنى ، ليبحث براحته عن أية أسلحة ، مثبتة أسفل الأرفف ، فصاحت المضيفة فى انهيار :

- هل تعتقد أن (جوزيف) خائن ؟!

أجابها ، وهو ينهض فى توتر :

- لقد أجبروه على هذا بوسيلة ما .

صاحت :

- مستحيل ! مستحيل أن يفعل (جوزيف) هذا .. مستحيل ! إننى أعرفه منذ أربع سنوات ، وهو ....

قاطعها (أدهم) ، وهو يجذبها نحو النافذة فجأة ، قائلاً فى صرامة :

- أخبرينى كيف يبدو لك هذا إذن ! راقبى الارتفاع ، وزاوية سقوط أشعة الشمس .. إننا ننطلق نحو الجنوب الغربى ، بزاوية سبع وعشرين درجة ، على ارتفاع منخفض ، فهل يبدو لك هذا أشبه بالانطلاق ، نحو الولايات المتحدة الأمريكية ؟!

أدركت ما يعنيه على الفور ، فهتفت فى رعب :

- ولكن لماذا ؟! لماذا ؟!

كانت كل ذرة فى كيانها ترتجف ، وهى تطلق هتافها هذا ، فساعدها على الجلوس على أقرب مقعد ، قبل أن تسقط فاقدة الوعى ، وهو يقول فى حزم :

- لقد سيطر عليه بعضهم بوسيلة ما .. ربما اختطفوا زوجته ، أو أحد أبنائه ، أو شىء من هذا القبيل ، ليجبروه على فعل كل ما يأمرونه به .

انتفض صوتها وجسدها بعنف أكثر ، وهى تقول :

- هل .. هل يعنى هذا أننا سنموت ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يجيب :

ـ ليس بالضرورة .

ثم عاد يتلفَّت حوله ، مستطردًا فى صرامة :

ـ وليس إذا ما عثرنا على سلاح ما .. أى سلاح .

هزّت رأسها فى قوة ، وهى تجهش بالبكاء ، هاتفة :

ـ لن يمكنك أن تجد أى سلاح هنا .

سألها فى اهتمام متوتر :

ـ ولماذا ؟!

أجابته ، ودموعها تغرق وجهها :

ـ لقد كانوا شديدى الحذر ، بشأن أية احتمالات ، لذا فقد أصروا على تفتيشنا جميعًا مرتين ، للتأكُّد من أننا لانحمل أية أسلحة ، وفحصوا الطائرة نفسها ثلاث مرات ، وفتشوها شبرًا شبرًا ، قبل الإقلاع مباشرة .

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول :

ـ هذا يعنى أنه لا توجد أسلحة مباشرة .

ثم عاد يتلفَّت حوله ، مستطردًا فى حزم :

ـ وأنه علينا أن نصنع أسلحتنا بأنفسنا .

هزّت رأسها فى قوة ، قائلة :

ـ لا يوجد هنا ما يصلح كسلاح .

أجابها فى صرامة ، وهو يندفع عبر الممر :

ـ هذا ما تتصوَّرينه .

ثم انتزع إحدى أسطوانات إطفاء الحريق الصغيرة ، وهو يستطرد :

ـ لو أنك تنتمين إلى عالمنا ، لتعلمت كيف تصنعين سلاحك .

وجذب إحدى المناشف القماشية ، التى تحمل شعار المخابرات الروسية ، مكملاً :

ـ من أى شىء حولك .

راقبته من وسط دموعها فى دهشة ، وهو يمزّق المنشفة إلى شرائح صغيرة ، راح يوصل بعضها ببعض فى إحكام ، وسألته فى توتر :

ـ وبم يمكن أن تفيدك منشفة مطبخ ؟!

أجلبها فى حزم ، وهو يحمل أسطوانة الإطفاء الصغيرة ، والحبل الذى صنعه من شرائح المنشفة ، إلى كابينة القيادة :

- سترين .

تحركت أصابعه فى سرعة ومهارة ، وهو يثبت الأسطوانة الصغيرة فى إحكام ، فى رتاج باب كابينة القيادة ، بوساطة شرائح المنشفة ، فمسحت دموعها فى دهشة ، وهى تقول :

- وما الذى يمكن أن يعنيه هذا دون وسيلة لتفجير الأسطوانة ؟!

عاد إلى المطبخ ، ليلتقط بلطة طوارئ صغيرة ، قائلاً :

- لدينا وسيلة ممتازة .

اتسعت عيناها فى ارتياع ، وهى تهتف :

- حذار أن تفعل .. أى انفجار داخل الطائرة سيحطم نوافذها كلها ، ويخلّ بالضغط الجوى فى عنف .

هزّ رأسه ، قائلاً :

- أى ضغط جوى أيتها المضيفة ؟! لو ألقيت نظرة واحدة ،

عبر نوافذ الطائرة ، لأدركت أنها قد انخفضت كثيرًا ، فى محاولة لتفادى أجهزة الرادار على الأرجح ، ولم يعد الفارق فى الضغط الجوى يمثّل خطرًا حقيقيًا .

هتفت فى ذعر :

- ولكن ..

قبل أن تتم عبارتها ، ألقى هو البلطة الصغيرة بكل قوته ، وكل مهارته ، نحو أسطوانة الإطفاء الصغيرة مباشرة ..

وشهقت المضيفة فى رعب ..

وارتطمت البلطة الصغيرة بالأسطوانة ..

ودوى الانفجار ..

انفجار مكتوم محدود ، تحطّمت معه الطبقة الداخلية ، من زجاج النوافذ القريبة ، وانسحق له رتاج باب كابينة القيادة ..

وصرخت المضيفة ..

وصرخت ..

وصرخت ..

ومع صرخاتها ، اندفع (أدهم) كالصاروخ ، عبر ممر الطائرة ، واقتحم كابينة القيادة كالإعصار ..

وبكل رعب الدنيا صاح (جوزيف) وهو يدير فوهة مسدس الإشارة نحو (أدهم) :

ـ لا .. لا تحاول إفساد الأمر .

وثب (أدهم) نحوه كالفهد ، وأمسك معصمه بأصابع من فولاذ ، وهو يهتف :

ـ أى أمر أيها الحقير ؟!

قاوم (جوزيف) باستماتة غير عادية ، وهو يصرخ :

ـ لا .. لا تفسد ما فعلته .. سيقتلون زوجتى وابنى .. سيقتلونهما بلا رحمة .

كانت الطائرة قد تجاوزت سواحل (المكسيك) بالفعل ، وواصلت انطلاقها بتلك السرعة الكبيرة ، على ارتفاع منخفض ، فهوى (أدهم) على فك (جوزيف) بلكمة قوية ، هاتفًا :

ـ أيها الغبى .. وهل صدقت أنهم سيتركونهما ، لو نفذت أوامرهم .

كانت اللكمة من القوة ، بحيث تكفى لتحطيم فك (ثور) ، ولكن العجيب أنها لم تُفقد (جوزيف) وعيه ، وهو يصرخ كالمجنون :

ـ لا .. لا تقل هذا .. لقد فعلت ما فعلت من أجلهما .. لا تقل هذا .

كان من الواضح أن الطائرة تتوغّل أكثر وأكثر ، فى الصحراء المكسيكية ، وأن أية دقيقة ضائعة أخرى ، قد تعنى كارثة ، لذا فقد هوى (أدهم) على أنف (جوزيف) بلكمة كالقنبلة ، قائلاً :

ـ غبى .

انتفض جسد (جوزيف) فى عنف ، مع قوة اللكمة ، وانقبضت عضلاته كلها ، و ...

واعتصرت سبّابته زناد مسدس الإشارة ..

وانطلقت طلقة الإشارة الحارقة ، داخل كابينة القيادة ..

وانفجرت ..

ومع انفجارها ، اشتعلت النيران فى الكابينة كلها دفعة واحدة ، وألقت موجة التضاغط (أدهم) خلفًا فى قوة ، إلى ممر الطائرة ، التى راحت تهوى ..

وتهوى ..

وتهوى ..

بمنتهى السرعة ..

ومنتهى العنف .

* * *



٥ ـ الرمال ..

بدا المعاون الأول ، لمدير المخابرات العامة المصرية ، شديد التوتر إلى حد كبير ، وهو يندفع إلى مكتب هذا الأخير ، هاتفًا :

ـ طائرة سيادة العميد (أدهم) لم تصل إلى (نيويورك) ياسيّدى .

رفع المدير عينيه إليه ، هاتفًا فى ارتياع :

ـ لم تصل ؟!

لوّح المعاون بورقة فى يده ، قائلاً بكل التوتر :

ـ رجالنا هناك أبلغونا أن الطائرة لم تصل ، فى الموعد المقرَّر لها ، وكل محاولات الاتصال بها فشلت ؛ لأن أجهزة اللاسلكى بها مغلقة ، أو أنها لاتستجيب للاتصالات والإشارات ، كما أن كل أجهزة الرادار فى المنطقة لم تلتقط اقترابها ، بأى حال من الأحوال .

سأله المدير ، وهو ينهض من خلف مكتبه فى انفعال :

ـ متى تم آخر اتصال بها ؟!

أجابه فى سرعة :

ـ بعد ساعتين وست عشرة دقيقة ، من إقلاعها من مطار (هيثرو) فى (لندن) .

تساءل المدير ، وهو يدور فى المكان فى عصبية :

ـ ألم ترسل إشارة استنجاد أو استغاثة ؟!

هزّ المعاون رأسه نفيًا ، وقال فى توتر :

ـ مطلقًا .

توقّف المدير دفعة واحدة ، وهو يتساءل :

ـ ما الذى يمكن أن يعنيه هذا ؟!

هزّ المعاون رأسه ، قائلاً :

ـ يمكن أن يعنى كل شىء ، أو أى شىء ياسيّدى .

مال المدير نحوه ، يسأله فى حزم متوتر :

ـ ماذا قال الخبراء ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ لم أعرض الأمر على الخبراء بعد ، ولكنه ـ فى رأيى ـ لا يحتمل سوى احتمالين ، لا ثالث لهما .. إما أن الطائرة قد تعرّضت لعمل تخريبى أدّى إلى سقوطها فى المحيط ..

هزّ المدير رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ ما فعله الروس لتأمين الرحلة ، يلغى هذا الاحتمال تمامًا .. لقد فحصوا الطائرة أكثر من مرة ، وبوساطة فريق من الخبراء يستحيل معه أن تختفى عبوة ناسفة ، فى أى مكان منها .

شدّ المعاون قامته ، قائلاً :

ـ يبقى الاحتمال الثانى إذن .

سأله المدير فى اهتمام :

ـ وما هو ؟!

أجابه فى سرعة وحزم :

ـ أن الطائرة قد انحرفت عن مسارها .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف بحزم أكثر :

ـ عمدًا .

انعقد حاجبا المدير فى شدة ، وهو يغمغم :

ـ احتمال بالغ الخطورة يا رجل .

وافقه المعاون بإيماءة من رأسه ، قائلاً :

ـ ولكنه يُبقى على الأمل ، فى أن سيادة العميد (أدهم) مازال على قيد الحياة .

أدار المدير عينيه إليه ، متسائلاً فى مرارة :

ـ إلى متى ؟!

ولم ينبس المعاون ببنت شفة هذه المرة ..

فحتى لو افترض أن (أدهم) مازال على قيد الحياة ، فالسؤال سيبقى مخيفًا فى الرءوس ..

إلى متى سيبقى كذلك ؟!

إلى متى ؟!

ويا له من سؤال !

* * *

انتفخت أوداج جنرال الجيش المكسيكى السابق (ألنزو) ، وهو يفتل شاربه الضخم ، ويتطلّع فى زهو إلى جيشه الخاص الصغير ، الذى يقف أمام قلعته المنيعة ، فى قلب الصحراء المكسيكية ..

جيش مكوّن من مائة رجل ، ودبابتين ، ومدفعى ميدان ، وطائرة صغيرة ، وست من سيارات الجيب القوية ، مع طن من الأسلحة والذخائر ..

الجيش الذى كوّنه من عدد من المحتالين والأفاقين ، وجنود الجيش السابقين ، الذين تورّطوا معه فى فضيحة مالية لأخلاقية ، تسبّبت فى فصله وفصلهم ، من صفوف الجيش المكسيكى ..

ولأنه رجل حرب وقتال ، فقد صنع الرجل جيشه هذا ، وأنفق عليه ثروة ، ليؤجر خدماته لكل من يمكنه دفع الثمن ..

تجار المخدرات ..

المهربون ..

والآن منظمة (X) ..

ومرة أخرى ، فتل الجنرال شاربه الضخم ، وهو يضغط زر جهاز الاتصال اللاسلكى ، قائلاً فى صرامة خشنة :

ـ هل من أخبار ؟!

أتاه صوت أحد مراقبيه ، وهو يقول ، عبر جهاز الاتصال :

ـ لا جديد يا جنرال .. الطائرة لم تظهر ، وفقًا للجدول المتفق عليه ، على الرغم من أن مراقب الشاطئ قد أكَّد عبورها إلى الداخل ، على ارتفاع منخفض .

سأله الجنرال (ألنزو) فى اهتمام :

ـ ومتى حدث هذا ؟!

أجابه الرجل فى سرعة :

ـ منذ عشر دقائق .

انعقد حاجبا الجنرال الكثان ، وهو يقول :

ـ عشر دقائق ؟! عجبًا ! هذا يعنى أنه كان من المفترض أن تظهر عندك ، منذ دقيقة تقريبًا .

أجابه الرجل :

ـ بالضبط ، ولكننى حتى لا ألمحها ، عبر منظارى المقرِّب .

غمغم الجنرال فى قلق :

ـ تُرى ماذا حدث ؟! أهناك خطأ فى تحديد المسار ، لم ..

بتر عبارته دون أن يتمَّها ، واستعاد صرامته الخشنة ، وهو يقول :

ـ واصل المراقبة يا رجل ، وأبلغنا فور ظهورها ، حتى نستعد لاستقبالها ، و ...

قاطعته هذه المرة شهقة قوية ، نقلها إليه جهاز الاتصال اللاسلكى ، فهتف فى انزعاج :

ـ ماذا حدث يا رجل ؟! ماذا عندك ؟!

هتف الرجل ، فى توتر شديد :

ـ الطائرة الروسية يا جنرال .

صاح به :

ـ ماذا عنها ؟!

أجابه فى سرعة وذعر :

ـ لقد رصدتها منذ لحظات ، وهى تنطلق بعيداً عن المسار المتفق عليه .

صاح الجنرال فى غضب :

ـ أيستحق هذا منك كل الانفعال ، الذى تتحدث به ؟!

هتف الرجل :

ـ إنها ليست فى حالتها الطبيعية ياجنرال .. إنها .. إنها ..

صاح به فى حدة :

ـ إنها ماذا ؟! انطق أيها الغبى .

هتف الرجل ، عبر جهاز الاتصال ، بكل انفعال الدنيا :

ـ إنها تحترق .

وانطلقت الشهقة من حلق الجنرال نفسه هذه المرة ..

فهذا التطوّر الخطير لم يكن ضمن الخطة ..

بل ولم يكن فى الحسبان ..

أبداً ..

* * *

انفجار طلقة الإشارة ، داخل كابينة القيادة ، ألقى (أدهم) خارجها فى عنف ..

ثم اشتعلت بها النيران دفعة واحدة ..

وبكل رعب الدنيا ، علت المضيفة الروسية تصرخ ..

وتصرخ ..

وتصرخ ..

وعلى صرخاتها ، نهض (أدهم) ، ووثب واقفاً على قدميه ، وانطلق يعدو عبر ممر الطائرة ، ليلتقط أسطوانة إطفاء أخرى ، وهو يهتف بالمضيفة :

ـ تراجعى إلى مؤخرة الطائرة ، واجلسى على مقعد هناك ، واحكمى رباط حزامه فى قوة .. هيا .

صاحت فى رعب ، وهى تنفذ أوامره :

ـ وماذا عن الباقين ؟!

راح يطلق المادة الرغوية داخل كابينة القيادة ، محاولاً إطفاء النيران ، التى اشتعلت بها ، وهو يهتف :

ـ لن يمكنك إيقاظهم للأسف .. زميلك الخائن استخدم معهم مادة مخدِّرة قوية .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تهتف :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

كانت النيران تمتدّ إلى كل مكان ، فى كابينة القيادة ، بسرعة مخيفة ، على الرغم من محاولات (أدهم) ، الذى غمغم فى توتر شديد :

ـ لا فائدة .

صرخت المضيفة مع قوله :

ـ هل سنموت ؟! هل سنلقى حتفنا ؟!

أدار عينيه إلى نافذة الطائرة المجاورة ، وشاهد رمال الصحراء تقترب ..

وتقترب ..

وتقترب ..

ولم تكن أمامه وسيلة واحدة لمنع ما سيحدث ..

الطائرة كانت تواصل انطلاقها ، وهى تنخفض طوال الوقت ..

ورمال الصحراء تقترب بسرعة مخيفة ..

والنيران تلتهم كابينة القيادة التهامًا ، وزجاجها يتحطم فى عنف ، مع ارتفاع درجة الحرارة الداخلية المخيف ..

وألقى (أدهم) أسطوانة الإطفاء الفارغة جانبًا ، واندفع إلى مؤخرة الطائرة ، وأحكم رباط المقعد المجاور للمضيفة الروسية حول جسده ، وهو يغمغم فى سخرية ، لا تتناسب قط مع الموقف :

ـ هأنتذا قد اتخذت كل الاحتياطات اللازمة يا (سيرجى) ، ولكن هذا الموقف لم يخطر ببالك حتمًا !

نطقها بالعربية ، فصاحت المضيفة ، وهى تتشبّث به فى رعب :

ـ ماذا تقول ؟!

أمسك بها فى قوة ، قائلاً بالروسية :

ـ لا عليك .

وعبر النافذة المجاورة ، رأى الاثنان الرمال تقترب بسرعة أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

ثم حدث الارتطام فجأة ..

وأطلقت المضيفة الروسية صرخة رعب هائلة ، عندما ارتطم بطن الطائرة بالرمال ، ثم راحت تزحف بجسمها كله فوقها بسرعة مخيفة ، لتقطع ما يقرب من مائة متر كاملة ، قبل أن ينهار تركيبها دفعةً واحدة ، وتنقسم إلى قسمين ، راح كلاهما يزحف مندفعًا على رمال الصحراء المكسيكية ، مع فارق واحد ..

فالنصف الأوَّل تحوَّل إلى كتلة من اللهب ، فى حين راح الوقود يتدفَّق فى غزارة ، فى الخزان المحطَّم ، ليغمر النصف الثانى ، الذى يجلس فيه (أدهم) والمضيفة ، التى تواصلت صرختها فى رعب بلا حدود ، وهى تتشبَّث بـ (أدهم) بكل قوتها ، باعتباره أملها الأخير فى النجاة ..

لو أنه هناك أمل ..

أما (أدهم) نفسه ، فقد راوده شعور بأن النجاة فى موقف كهذا ، تبدو أشبه بالمستحيل !

أو هى المستحيل نفسه ..

فمع الزحف على رمال الصحراء ، بهذه السرعة المخيفة ، تتولَّد فى المعتاد شرارات صغيرة ، ولكنها تكفى لإشعال الوقود ، الذى يغمر ذلك النصف من الطائرة ، و ...

وفجأة ، انفصلت منطقة الذيل أيضًا ، لينهار معها مطبخ الطائرة ، وذلك الجزء الذى يرقد فيه الطاقم الأوَّل مخدرًا ..

ومع انهيار المطبخ ، اشتعلت أسطوانة الوقود فيه ..

واشتعلت النيران فى ذلك الجزء دفعة واحدة ..

ومع صرخة الرعب الجديدة ، التى أطلقتها المضيفة ، دوى الانفجار ..

انفجر الجزء الخلفى المنفصل ، واشتعلت فيه النيران فى عنف ، فى حين ظلّ ذلك القطاع ، الذى تجلس فيه مع (أدهم) يواصل زحفه على الرمال فى عنف ، وكأنه لن يتوقّف أبدًا ..

وبكل انهيارها ، صرخت المضيفة المذعورة :

ـ رباه ! الجميع لقوا حتفهم .. الجميع بلا استثناء .. نحن أيضًا سنلقى حتفنا .. لا أمل .. لا أمل .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة مع صرختها ، وهو يحدّق فى النصف الأمامى المشتعل من الطائرة ، والذى انخفضت سرعته كثيرًا ، بحيث لابد أن يرتطم به الجزء الذى يجلسان فيه ، بكل ما يغرقه من وقود ..

والنتيجة عندئذ حتمية ..

جزء غارق فى الوقود ، يصطدم بجزء مشتعل ، و ...

« استعدى .. » ..

نطقها فى حزم صارم ، وهو يحلّ حزام مقعد المضيفة ، وحزام مقعده معًا ، فتشبّثت به هى أكثر ، صائحة :

ـ ماذا ستفعل ؟! يا إلهى ! ماذا ستفعل ؟!

لم يكن هناك وقت لمناقشة الأمر ، أو شرح الاحتمالات المتوقّعة ، لذا فقد انتزعها من مقعدها بكل قوته ، واندفع بها نحو الجزء الخلفى فى ذلك القطاع ، وهى تطلق صرخة مدوية :

ـ ماذا ستفعل ؟!

ودون أن يجيب تساؤلها ، جذبها فى قوة ، وهو يثب خارج ذلك الجزء ، من الطائرة المحطمة ..

وصرخت المضيفة بعنف أكبر ، ورعب أكثر ، عندما ارتطم جسداهما بالرمال ، وراحا يتدحرجان فوقها فى قوة ، فى نفس الوقت الذى واصل فيه جزء الطائرة زحفه ، حتى اصطدم بمقدمتها المشتعلة ..

ومع دوى الارتطام العنيف ، انتقلت النيران من



ودون أن يجيب عن تساؤلها ، جذبها فى قوة ، وهو يثب خارج ذلك الجزء ، من الطائرة المحطمة ..

هذا الجزء إلى ذاك ، وتحول الاثنان إلى كتلة من اللهب ، وهما يواصلان زحفهما لأمتار قليلة أخرى ، قبل أن يتوقفا تمامًا ، وألسنة اللهب المندلعة منهما ، ترتفع إلى عنان السماء ..

وتوقف جسدا (أدهم) والمضيفة أيضًا ، وكلاهما يشعر بآلام رهيبة ، تنتشر فى كل جزء من كيانه ، وهى تبكى فى حرارة ، هاتفة :

ـ يا إلهى ! لقد نجونا .. لقد نجونا ..

اعتدل هو ، دون أن ينبس ببنت شفة ، فى حين رفعت هى رأسها ، لتلقى نظرة مذعورة على أجزاء الطائرة المشتعلة ، قبل أن تضيف فى ارتياع :

ـ رباه ! لقد أنقذت حياتنا .. كان من الممكن أن نصبح جزءًا من هذا الجحيم .

غمغم ، وهو يحاول السيطرة على آلامه :

ـ كان توفيقًا من الله (عزَّ وجلَّ) .

استدارت تحدق فيه بدهشة ، وكأنما تعجز عن استيعاب هذه الروح الإيمانية ، فتنهَّد مغمغمًا :

- لست أدرى ما إذا كان هذا من حسن حظنا ، أم من سوء طالعنا .

سألته فى رعب :

- ماذا تعنى ؟!

نهض واقفًا على قدميه ، وأشار بذراعيه لما حوله ، وهو يجيب :

- لقد نجونا من حادث طائرة ، ليواجهنا هذا .

اتسعت عيناها بكل رعب الدنيا ، وهى تدير بصرها فيما حولها ، وفيما أشارت إليه ذراعاه ..

فعلى مدى البصر ، فى كل الاتجاهات ، وباستثناء أجزاء الطائرة المشتعلة ، لم يكن يحيط بهما سوى الرمال ..

أطنان من الرمال ، بلا نهاية ..

وبلا حدود ..

وبلا أمل ..

أيضًا ..

* * *

ارتفع حاجبا (لورا) فى دهشة ، عندما انطلق رنين هاتفها الخاص بغتة ، وهى تجلس داخل طائرة خاصة ، تنطلق بها فوق الصحراء المكسيكية ، فى طريقها إلى قلعة الجنرال (ألنزو) ، فالتقطته فى حركة سريعة ، وألقت نظرة سريعة على لوحة إظهار الأرقام ، قبل أن تضغط زر التحدُّث ، قائلة فى حذر :

- (لورا) .

أتاها صوت مستر (X) ، وهو يقول فى توتر :

- إنه أنا يا (لورا) .

- غمغمت فى انفعال :

- هذا ما توقعته .

ثم سألته فى فضول واهتمام بالغين :

- كيف يمكنك أن تلغى قدرة هاتفى على التقاط رقم هاتفك ، فى كل مرة تتحدث فيها إلىّ ؟!

زمجر فى عصبية ، قائلاً :

- ليس هذا وقت الأسئلة السخيفة .

انعقد حاجباها فى حنق ، وهى تقول :

- حسنًا .. وما الأسئلة العظيمة ، من وجهة نظرك ؟!

تجاوز حدتها هذه المرة ، وهو يقول فى صرامة :

- خطتنا لم تسر على ما يرام .

اعتدلت فى مقعدها بحركة حادة ، هاتفة فى انزعاج :

- حقًا ؟! ماذا حدث ؟!

أجابها بنفس الصرامة :

- الطائرة الروسية خرجت عن المسار ، الذى حددناه لمساعد الطيار الروسى .

هتفت :

- هل خاننا الرجل ، وزوجته وابنه الوحيد فى قبضتنا ؟!

أجاب فى سرعة :

- المراقبون رأوها تهوى مشتعلة ، على مسافة ثلاثين كيلومترًا ، من موقع الهبوط الفعلى .

هتفت بكل انفعالها هذه المرة :

- مشتعلة ؟!

ثم تهلل صوتها ، وهى تضيف :

- عظيم .. لم تعد هناك حاجة للتعقيدات إذن .. ها هو ذا القدر يحسم الأمر بضربة رائعة .

قال فى غضب وغلظة :

ـ قلت : إن الطائرة قد هوت مشتعلة ، ولم أقل إن (أدهم صبرى) قد لقى مصرعه .

تراجعت ، متسائلة فى دهشة :

ـ وما الفارق ؟!

أجاب فى صرامة :

ـ الفارق ضخم للغاية .

قالت فى حدة :

ـ لست أرى أى فارق هنا .. طائرة سقطت مشتعلة ، وبداخلها رجل نسعى للتخلُّص منه ، بخطة طويلة معقَّدة ، ومن الطبيعى أن يلقى مصرعه داخل الطائرة ، مثلما سيحدث لأى مخلوق عادى ، مهما بلغت قوته ، فلماذا تتصوَّر العكس ؟!

صمت مستر (X) بضع لحظات ، حتى إنها تصوَّرت أن الاتصال قد انقطع ، فقالت فى قلق :

ـ هل تسمعنى أيها الزعيم ؟!

وبدلاً من أن يجيب سؤالها ، سألها هو فى لهجة قاسية :

ـ هل تعلمين لماذا ربح (أدهم صبرى) هذا كل معاركه فى الماضى ؟!

بدا لها السؤال سخيفًا ، ولا محلّ له هنا ، فقالت فى ضجر :

ـ لأنه يتمتع بقدرات خاصة .

فاجأها أسلوبه الفظ ، وهو يقول فى حدة :

ـ خطأ .

انعقد حاجباها فى سخط ، وهو يتابع فى صرامة غاضبة :

ـ (أدهم صبرى) ربح كل معاركه سابقًا ، لأن أحدًا لم يقدِّره حق قدره .. الكل كان يتمنى القضاء عليه ، وإزاحته عن طريقه ، حتى إنه ما إن لمح ما يوحى بهذا ، حتى ارتاح لما تصوَّره ، واطمأن له ، وأرخى أعصابه .. ومن هنا ينقضّ عليه (أدهم) ، ويسحقه سحقًا .

قالت فى عصبية :

ـ أعتقد أنه قد لقى مصرعه هذه المرة .

قال فى حدة أكثر :

ـ خطأ أكبر يا (لورا) .. الصينيون يقولون : إنه من الخطأ أن تغمض عينيك ، لمجرَّد أنك تمنيت أن يموت خصمك .. الأمور لا تحدث لأننا نريدها أن تحدث ، و (أدهم صبرى) لن يموت ، لمجرَّد أن هذا ما نريده .

قالت فى عناد :

ـ بل سيموت ؛ لأنه سقط فى طائرة مشتعلة .

بدا شديد القسوة والصرامة ، وهو يقول :

ـ لا تجزمى بهذا ، حتى تتيقَّنى منه بنفسك .. أكبر خطأ فى الوجود هو أن يفترض المرء أمورًا بالغة الحساسية والخطورة ، قبل أن يحصل على دليل حاسم ، يجزم بحدوثها .

زفرت فى توتر ، وقالت فى ضجر :

ـ اسمع أيها الزعيم .. أنا فى طريقى إلى ذلك الجنرال المهووس بالفعل .. ما الذى تريد منى فعله بالضبط ؟!

أجابها بكل صرامة الدنيا :

ـ أريد دليلاً يقينيًا ، على مصرع (أدهم صبرى) .

سألته :

ـ مثل ماذا ؟!

أجاب فى سرعة ، وبنفس الصرامة الشديدة :

ـ أى دليل يحسم هذا الأمر تمامًا ؛ لأن الخطوات التالية فى خطتنا ، تعتمد على إزاحة رجل المخابرات المصرى هذا من الوجود تمامًا ، ولا يمكننا الانتقال إلى الخطوة الجديدة ، قبل التيقن من هذا ، على نحو لا يمكن أن يتطرَّق إليه الشك .

زفرت مرة أخرى ، قائلة :

ـ فليكن .. سأبذل قصارى جهدى .

صمت لحظة أخرى ، ثم قال فى حزم :

ـ هناك أمر آخر يا (لورا) .

سألته ، وقد بلغ ضجرها مبلغه :

ـ وما هو ؟!

أجابها فى حزم أكبر :

ـ النجاح فى أى أمر ، يتطلَّب الإيمان بـه ، والاقتناع بالهدف منه ، ولكى تنتصرى فى هذه المهمة ، التى يتوقَّف عليها مصير المنظمة كلها ، لابـد أن تقومى بها ، وأنت تؤمنين بأن (أدهم صبرى) مازال على قيد الحياة .

قالت فى توتر :

ـ وما الفارق ؟!

أجاب فى مزيج مدهش ، من الحزم والصرامة :

ـ الفارق هو أنك ، فى هذه الحالة ، ستبحثين عنه بكل اهتمامك وحماستك ، وستطاردينه للظفر به ،

ولن تتوقفى حتى يصبح لديك دليل قاطع على مصرعه .

بدا لها حديثه منطقيًا ، فاعتدلت فى مقعدها ، قائلة :

ـ لقد فهمت .

سمعته يتنهَّد فى قوة ، وهو يقول :

ـ هذا أفضل بالتأكيد .

ثم استعاد لهجته الحازمة الصارمة ، وهو يضيف :

ـ أبلغينى التطورات أولاً فأولاً ، فهاتفك المتصل بالأقمار الصناعية ، يمكنه أن يعمل من قلب الصحراء .

غمغمت :

ـ بالتأكيد .

أنهى الاتصال ، فانعقد حاجباها بشدة ، وهى تفكِّر فيما قاله ، ثم لم تلبث أن أشعلت سيجارة ، ونفثت دخانها فى قوة ، على الرغم من التعليمات الصريحة ، بعدم التدخين داخل الطائرة ..

ففى أعماقها ، كان ذلك السؤال ، الذى طرحه مستر (X) ، مازال يعربد بشدة ..

تُرى هل يمكن أن يظلّ (أدهم) حيًا ، بعد حادثة مروّعة كهذه ؟!

هل ؟!

والتهب عقلها بالسؤال أكثر وأكثر ، والطائرة تواصل الانطلاق بها ، نحو قلعة الجنرال (ألنزو) ..

ولكنها ، وفى أعمق أعماقها ، وعلى الرغم من أى منطق عقلانى ، بدأت تؤمن بأن (أدهم صبرى) لم يلق مصرعه فى حادث الطائرة ..

وأنه ما زال على قيد الحياة ..

ولابد أن تسعى للعثور عليه ، وتصفيته ..

وبأى ثمن .

* * *

٦ ـ الجيش ..

انعقد حاجبا الجنرال (ألنزو) الكثان فى شدة ، وهو ينهى محادثة صارمة طويلة ، مع مستر (X) ، عبر هاتفه المحمول ، المتصل بالأقمار الصناعية ، ثم أعاد الهاتف إلى جيبه ، وهو يقول لمساعده (رود ريجز) فى خشونة :

ـ يقولون : إن اشتعال الطائرة وسقوطها ، لايعنى بالضرورة مصرع كل من فيها .

مطّ (رود ريجز) شفتيه ، وقال فى هدوء :

ـ أظننى أتفق معهم فى الرأى يا جنرال .

استدار إليه (ألنزو) بحركة حادة غاضبة ، ولكنه تابع بنفس الهدوء :

ـ لقد شاهدت ، فى نشرات الأخبار العالمية ، حوادث طيران رهيبة ، لايمكنك أن تتخيّل وجود أحياء بعدها ، ثم يفاجئك الخبر بأن بعضهم قد ظلّ على قيد الحياة .

قال (ألنزو) ، فى حدة وخشونة :

ـ إننا نتحدث عن طائرة ، تحمل رجلاً واحدًا .

هزّ (رود ريجز) كتفيه ، قائلاً :

ـ يقولون : إنه رجل غير عادى .

هتف (ألنزو) ، وهو يلوّح بذراعه كلها فى حنق :

ـ هراء .

أدار (رود ريجز) رأسه فى بطء ، ليتطلّع إليه فى شىء من الاستهتار ، وهو يقول بنفس الهدوء المستفز :

ـ هل تعتقد أنهم كانوا سيضعون خطة كهذه ، ويستأجرون جيشًا كجيشنا ، ويدفعون الملايين بسخاء ، لو أنهم يواجهون رجلاً عاديًا ؟

قال (ألنزو) فى حدة :

ـ إننا نتحدث عن رجل واحد يا كولونيل ... رجل واحد ، مهما بلغت قوته وقدراته .. إننى رجل حرب

عريق ، ولقد واجهت عشرات الأشياء والرجال طوال حياتى ، وشاهدت أبطالاً يقاتلون كالأسود ، ولكنهم كانوا فى النهاية مجرد بشر .. دفعة من رصاصات مدفع آلى ، أوقنبلة مباشرة ، تكفى لسحقهم سحقًا ، ومحوهم إلى الأبد من سجل الأحياء ..

مطّ (رود ريجز) شفتيه مرة أخرى ، واعتدل ، قائلاً فى هدوء :

ـ لا داعى للاستهانة بالخصم يا جنرال .

قال الجنرال المكسيكى فى حدة :

ـ لست أستهين به ، ولكننى أضعه فى حجمه الطبيعى .

أخفى (رود ريجز) ابتسامته ، وهو يقول :

ـ إننا لم نختبر حجمه الطبيعى بعد .

مرة أخرى ، استدار إليه (ألنزو) فى حدة ، وهو يقول :

ـ ما الذى تشير إليه بالضبط يا كولونيل ؟!

صمت (رود ريجز) بضع لحظات ، بدا خلالها وكأنه يتطلع إلى ما لا نهاية ، قبل أن يلتفت إليه ، قائلاً :

- فى عملنا ، اعتدنا أن نتعامل بما يرضى عميلنا ، الذى دفع أجرنا الباهظ ؛ لنحفظ سمعتنا ، ونجذب إلينا المزيد من العملاء .. ومادام العميل يصرّ على الحصول على تأكيد هذه المرة ، فلنمنحه إياه ..

سأله (ألنزو) فى عصبية :

- وكيف ؟! هل نرسل فريقًا من الرجال ، لفحص حطام تلك الطائرة ؟!

ابتسم (رود ريجز) ، قائلاً :

- الأمر لايحتاج إلى فريق من الرجال .. كل ما نسعى إليه مجرد تأكيد بصرى .

سأله الجنرال ، فى عصبية أكثر :

- وكيف هذا ؟!

رفع (رود ريجز) ساعده إلى مستوى كتفه ، ثم أمال كفه ، ودفعه إلى الأمام ، مجيبًا :

- فلنرسل الطائرة ..

عاد حاجبا الجنرال يلتقيان ، وهو يردد فى اهتمام :

- الطائرة ؟!

وصمت لحظة ، وكأنما يدرس الأمر فى ذهنه ، قبل أن يلتقط جهاز اللاسلكى بحركة حادة ، قائلاً :

- نعم .. هذا ما ينبغى ..

ضغط زر جهاز اللاسلكى ، وهو يعتدل فى مجلسه ، ثم قال عبره فى صرامة :

- هنا الجنرال (ألنزو) .. اتجه بالطائرة فورًا إلى منطقة سقوط تلك الطائرة الروسية .. أريد تقريرًا فوريًا عن الحادث ، وعن وجود أحياء بعده من عدمه .. هل تفهم ؟!

وأنهى الاتصال ، وهو يرفع رأسه فى اعتداد ، ويفتل شاربه ، قائلاً فى حزم :

ـ هكذا تكون القيادة .

وأشاح (رود ريجز) بوجهه ، ليخفى ابتسامة ساخرة علت شفتيه ..

ابتسامة شفت عن أنه ليس بالرجل العادى ..

بل هو أشبه بذئب ..

ذئب مفترس ..

جدًا ..

* * *

« الأمريكيون أرسلوا فرقة بحث .. » ..

نطق المعاون الأوّل ، لمدير المخابرات العامة المصرية العبارة ، وهو يطالع آخر تقرير عاجل ، وصل من (نيويورك) ، فسأله المدير فى اهتمام :

ـ ألم يتوصّلوا إلى شىء ما بعد ؟!

هزّ المعاون رأسه نفيًا ، وقال :

ـ الأمر يبدو لهم محيرًا ، مثلنا تمامًا ، ولكنهم يجمعون كل تقارير الرادارات ، بامتداد ساحلهم الشرقى ، وكل الإشارات التى أرسلتها سفنهم من المحيط ، ويراجعون كل الاتصالات ، التى التقطتها أجهزة اعتراضهم من المنطقة ، فى نفس الوقت الذى خرجت فيه فرقة البحث ، فى محاولة للعثور على أى حطام ، أو أية بقايا فى المحيط ، يمكن أن تشير إلى سقوط الطائرة .

تنهّد المدير ، وتراجع فى مقعده ، مغمغمًا :

ـ لا يمكن أن يتعلّق أى شىء بـ (ن ـ ١) دون أن يختلف عن أى مثيل آخر فى الوجود .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ وفى كل مرة ، يكون الأمر خطيرًا .. للغاية !

أومأ المعاون برأسه مؤيدًا ، ثم قال :

ـ لقد أجرينا اتصالنا بالروس مرة أخرى ، والأمر

يقلقهم بشدة كما يقلقنا ، ويريدون معرفة مصير (أدهم) ومصير طاقمهم أيضًا ، ولكنهم أكدوا بشدة استحالة وجود أية عبوات ناسفة ، بصورة مباشرة أو مستترة ؛ لأنهم قد فحصوا الطائرة أكثر من مرة ، دون أن يتركوا بها شبرًا واحدًا .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول :

- هذا يزيد من غموض الموقف أكثر .

أشار المعاون بيده ، قائلاً :

- خبراؤنا يدرسون الموقف بمنتهى الدقة ، وسيبلغوننا رأيهم حول احتمالات ما حدث ، خلال ساعتين على الأكثر .

قال المدير فى عصبية :

- ساعتان ؟!

ثم زفر فى توتر ، مضيفًا :

- الله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم ، ما الذى يمكن أن يحدث خلال ساعتين من الزمن ؟!

وافقه المعاون بإيماءة أخرى من رأسه ، وكل ذرة فى كيانه تشعر بالقلق لعبارته الأخيرة ..

ففى ظروف كهذه ، ما الذى يمكن أن يحدث خلال ساعتين من الزمن ؟!

الشىء الذى كان يجهله كلاهما لحظتها ، هو أن الساعتين تمضيان فى مكان لا يدعو للارتياح على الإطلاق ..

وسط رمال تمتد بلا نهاية ..

رمال تحمل فى طياتها ألف احتمال للخطر ..

وألف ألف احتمال للموت ..

فى كل لحظة ..

* * *

صبَّ (كارلو فيفيانى) ، مساعد دونا (كارولينا) لنفسه كأسًا من الشراب ، ولوّح به لزعيمته ، قائلاً :

- أما زلت تصرين على عدم تناول الشراب يا دونا ؟!

أجابته فى صرامـة ، وهـى تجلـس أمـام نـافذة قصرها :

ـ إننى أرفض كل ما يُذهب العقل .

ثم التفتت إليه ، مستطردة فى خشونة :

ـ وكل من يميلون إلى تلك الأشياء .

احتقن وجهه ، وهو يقول فى ارتباك :

ـ إنها بضع رشفات فحسب .

مطّت شفتيها ، وهى تعود ببصرها إلى النـافذة ، فاتجه إليها ، قائلاً :

ـ هل أزعجك تقرير خبراء البحث الأوَّلى ؟!

قالت فى توتر :

ـ بالتأكيد .

وصمتت لحظة ، انعقد خلالها حاجباها الكثان فى حنق ، وهى تستطرد :

ـ أولئك الخبراء أكدُوا ، فى تقريرهم المبدئى ، أن الأسلوب الـذى تمت بـه عمليـة الاختطـاف ، يتشـابه كثيرًا مـع أسلوبنا ، والرجـال الذين قاموا بالعملية ، كـانوا يسـتخدمون طرقنـا ، ويتعـاملون بوسـائلنا ، ولكن الأخطر أن أحدهم أطلق سبابًا بالإيطالية ، وهو يهدّد الأطباء وطاقم الأمن .

هزّ رأسه ، قائلاً :

ـ هل تعتقدين أنهم منا ؟!

تنهّدت ، مغمغمة :

ـ إنها عملية داخلية يا (كارلو) .

قال ، محاولاً تهدئة توتّرها :

ـ تقرير الخبراء مجرّد استنباط مبدئى يـا دونـا ، و ...

قاطعته فى صرامة :

ـ إنها عملية داخلية .

ارتشف رشفة من كأسه ، قبل أن يتساءل فى حيرة :

ـ ولكن مَن من زعماء العائلات يمكن أن يفعل هذا ؟! ولماذا ؟!

صمتت بضع لحظات ، قبل أن تقول فى توتر :

ـ لست أدرى من منهم فعلها بعد ، ولكننى أعرف لماذا ؟!

سألها فى لهفة :

ـ لماذا ؟!

التقطت نفسًا عميقًا ، أطلقته كزفرة ملتهبة ، من أعماق أعماق صدرها ، قبل أن تجيب :

ـ للفوز باللقب .

سألها فى حذر :

ـ أى لقب ؟!

أدارت عينيها إليه بنظرة قاسية ، وهى تجيب :

ـ لقب (الأب الروحى) بالطبع .

تراجع ، مغمغمًا :

ـ آه .. فهمت .

عادت تلتفت إلى النافذة ، وغرقت فى أفكارها بضع لحظات ، قبل أن تقول ، وكأنها تحدّث نفسها :

ـ الصراع على اللقب لم يتوقّف أبدًا ، منذ أيام والدى دون (كيرليونى) ، وعبر شقيقى (مايكل) ، وحتى وصل إلىّ ، باعتبارى آخر أسرة دون (كيرليونى) .. وأنت تذكر ذلك الصراع العنيف ، منذ بضع سنوات ، والذى استعنت خلاله بـ (أدهم صبرى) ، رجل المخابرات المصرى ، كقوة ضاربة لحمايتى[*] .

تمتم (كارلو) :

ـ نعم .. أذكر هذا .

(*) راجع قصة (نهر الدم) ... المغامرة رقم (١٠٢) .

صمتت طويلاً هذه المرة ، ثم قالت فى مرارة :

- إنها عملية داخلية .

تنهَّد بدوره فى عمق ، وعاد يرتشف رشفة من كأسه ، قبل أن يتساءل فى اهتمام بالغ :

- هذا يقودنا إلى السؤال الأكثر خطورة .

والتقى حاجباه بشدة ، وهو يضيف :

- من فعلها ؟! من ؟!

صمتت هذه المرة لفترة طويلة للغاية ، وقد غرقت فى تفكير عميق ، ارتسم بوضوح على كل لمحة من وجهها ، وهو يراقبها فى صمت قلق ، قبل أن تنهض من مقعدها بغتة ، قائلة :

- ليس لدى دليل ، ولكن ...

سألها بلهفة :

- من هو يا دونا ؟!

صمتت بضع لحظات أخرى ، قبل أن تشير بيدها ، قائلة فى حزم :

- شقيقى الراحل (مايكل) قصَّ علىَّ ذات مرة ، وأنا بعد طفلة صغيرة ، أن والدنا قد أخبره ، قبيل موته بقليل ، أن زعماء العائلات الأخرى لن يقبلوا به أبًا روحيًا لهم ، مع صغر سنه وحداثته ، وأنهم سيعدون مؤامرة للتخلص منه .

غمغم (كارلو) فى حماسة :

- كلنا نعرف هذه القصة يا دونا .. إنها بمثابة تاريخ لنا .

تابعت وكأنها لم تسمعه :

- ولقد أخبره والدى عندئذ ، أن أولّ من سيأتى ، ليدعوه إلى اجتماع العائلات ، سيكون هو الخائن ، الذى تآمر مع الآخرين للتخلص منه .

امتلأ صوت (كارلو) بالحماسة ، وهو يقول :

- ولقد حدث ما توقَّعه الدون الكبير ، وجاء أحدهم

يدعو دون (مايكل) للاجتماع ، ولكنه أعدّ خطة مدهشة ، قضى بها على كل زعماء العائلات بضربة واحدة ، ليحمل بعدها لقب (الأب الروحى) .

مطّت شفتيها ، قائلة فى حنق :

- إنه ليس تاريخًا مشرّفًا ، لنتحدّث عنه بكل هذه الحماسة .

بدت عليه الدهشة ، وهو يقول :

- ولكننا نعتبرها ضربة معلّم يادونا ، ولولاها ..

قاطعته فى صرامة :

- كفى .

أطبق شفتيه فى توتر ، فى حين تحركت هى فى المكان فى عصبية ، قبل أن تتوقّف فجأة ، وتقول فى حدة :

- (جوماتى) .

هتف (كارلو) ، بكل دهشة الدنيا :

- من ؟!

أجابته فى توتر ، امتزج بكل الغضب :

- (ألبرتو جوماتى) .. دون (جوماتى) .. ذلك المخلص ، الذى كان أوّل من هرع إلى المستشفى ، ليرى ما أسفرت عنه عملية اختطاف (جيهان) .

وانعقد حاجباها فى حنق ، وهى تضيف :

- وليتأكّد من أن رجاله لم يتركوا خلفهم أى أثر ، يمكن أن يقودنا إليهم أو إليه .

امتقع وجه (كارلو) ، وأبعد كأسه فى توتر ، وهو يقول :

- ما تقولينه أمر خطير للغاية يادونا .

أجابته فى حدة :

- ومنطقى للغاية أيضًا .

لوّح بيده ، قائلاً :

- لا يوجد لديك دليل واحد على هذا ، والعائلات الأخرى لن ترضى باتهامك لدون (جوماتى) ، دون دليل قوى ، لا يقبل الشك .

أزداد انعقاد حاجبيها ، وهى تفكرّ فى عمق ، قبل أن تقول فى حزم :

ـ فلندفعه إلى تقديم دليل إدانته إذن .

سألها بكل دهشته :

ـ وكيف هذا ؟!

استغرقت فى التفكير بضع لحظات أخرى ، ثم قالت فى بطء :

ـ لدى خطة من هذا الشأن .

واستمع إليها (كارلو) بكل انتباهه واهتمامه ، وهى تشرح له خطتها البسيطة الذكية ..

وامتلأت نفسه حتى قمتها بالانبهار ..

فالآن أدرك أنها تستحق ما نالته بحق ..

تستحق لقب (الأب الروحى) ، لكل عصابات (المافيا) ..

وعن جدارة ..

* * *

أغلقت المضيفة الروسية الحسناء عينيها فى إرهاق شديد ، وهى تحاول حماية وجهها من أشعة الشمس ، مغمغمة :

ـ هل نجونا من حريق الطائرة ، لنشتعل تحت هذه الشمس الملتهبة ؟!

مسح (أدهم) العرق الغزير ، الذى يتصبّب على وجهه ، وهو يقول :

ـ لست أرى مكانًا على مدى البصر ، يمكننا أن نتجه إليه ، لنستظلّ بظله ، والحريق دمّر كل أجهزة الاتصال ، فلم تعد لدينا وسيلة واحدة لطلب النجدة .

حمل صوتها كل مرارة يأسها ، وهى تقول :

ـ كنت أتصوّر أن الموت قد استبعدنا من قائمته ، عندما خرجنا سالمين ، من حادثة رهيبة كهذه ، ولكننى لم أكد أدرى أنه إنما فعل ، ليدخر لنا مصيرًا أكثر بشاعة .

قال فى صرامة ، وهو يتلفَّت حوله للمرة العاشرة :

ـ لا تفقدى الأمل بهذه السرعة .

لوَّحت بذراعيها ، قائلة فى يأس :

ـ أى أمل ؟! ما أراه على مدى البصر ، من كل الاتجاهات ، لا يحمل أدنى أمل .

قال فى حزم :

ـ لا تفقدى الأمل فى اللّٰه (سبحانه وتعالى) أبدًا .

مرة أخرى حدّقت فيه بدهشة ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ هل تعتقد أن هذه الأحـاديث الفلسفية ستنقذنا ، من مصيرنا الرهيب هذا .

استدار إليها ، قائلاً فى حسم :

ـ ليست أحاديث فلسفية أيتها الروسية ، وإنما هى شىء لا يمكنكم استيعابه فى عالمكم .

ومال نحوها ، ليضيف فى صرامة :

ـ شىء اسمه الإيمان .



قال فى صرامة ، وهو يتلفَّت حوله للمرة العاشرة :
ـ لا تفقدى الأمل بهذه السرعة ..

قالت فى حدة :

ـ وما الذى يمكن أن يفعله لنا هذا الإيمان .

أجابها فى صرامة حاسمة :

ـ الكثير .

حدقت فى وجهه لحظة ، ثم قالت فى توتر :

ـ لا يمكننى فهمكم أبدًا أيها العرب .

قال فى خشونة :

ـ لسنا لغزًا غامضًا إلى هذا الحد .

واصلت فى حدة :

ـ فى كل موقف عسير تتحدثون عن الإيمان ، وتسرفون فى الحديث عنه كما لو أنه قادر وحده على أن يحل كل المشكلات .

رفع عينيه إلى عينيها ، وهو يقول فى صرامة :

ـ من قال هذا ؟!

ثم عاد يميل نحوها ، مواصلاً :

ـ كلنا نعلم أن أية سيارة لايمكنها أن تسير ، إلا إذا تم التعامل مع آلاتها على نحو سليم ، ولكنها أيضًا عاجزة عن السير دون وقود .

قالت فى سرعة :

ـ بالتأكيد ، ولكن الوقود هو الرغبة فى بلوغ هدف ما .

قال فى حسم :

ـ بالضبط ، وهذا ما يتفق عليه الجميع ، ولكننا ننسى دومًا حتمية وجود مبررٍ للمحرك ، حتى لايحترق ، من فرط ما يبذل من جهد .

ثم أشار إلى صدره ، مستطردًا فى عزم خاشع :

ـ وهذا ما نطق عليه الإيمان .. إنه العامل الذى يجعلك تحتملين كل جهد ممكن ، وتبذلين كل رخيص وغالٍ ، فى سبيل بلوغ هدف نبيل .

زفرت ، وكأنها تعلن يأسها من مواصلة الحديث ، ولوّحت بيدها ، قائلة :

- فليكن .. نحن بحاجة حتمًا إلى ما يبرِّد أجسادنا ومشاعرنا ، تحت هذه الشمس الملتهبة .

لم ترق له الاستعارة التى استخدمتها ، ولكنه غمغم :

- بالتأكيد .

ثم رفع راحته ، ليحمى عينيه من أشعة الشمس المحرقة ، وهو يتطلّع إلى الأفق ، قائلاً :

- المنطقة التى مررنا بها ، منذ عبرنا الساحل ، وحتى هذه البقعة ، لم تكن تضمّ أية بقع مأهولة بالسكان ، وهذا يعنى أن الاتجاه الوحيد الذى يحمل إلينا الأمل ، فى وجود مناطق سكنية ، هو الغرب .

تمتمت فى مرارة :

- إننى أجهل حتى أين نحن الآن .

أجابها فى حسم :

- وفقًا لمسار الطيران ، أظننا فى (المكسيك) الآن .

غمغمت فى دهشة :

- (المكسيك) ؟! يا إلهى !

ثم هزّت رأسها ، وكأنها تنفض حبات العرق عن وجهها ، قبل أن تتابع فى عصبية :

- وهل سنتجه عشوائيًا إلى الغرب ، وسط هذا الجحيم ؟!

أجابها فى لهجة قوية :

- بل سننتظر حتى تبرد أجزاء جسم الطائرة نسبيًا ، بعد أن خبت النيران فيها ، ونحتمى بظلها من الشمس الملتهبة ، إلى أن يحلّ الظلام ، فنتحرك نحو الغرب .

غمغمت فى عصبية :

- ما لم نمت جوعًا وعطشًا قبلها .

قال فى حزم :

- لا يمكننا أن نفعل سوى هذا ، فمن المحتم أن

ننتظر هنا بعض الوقت ، لأنه لو تم رصد سقوط الطائرة ، فستتجه فرق الإنقاذ إلى موقع سقوطها ، والأفضل أن يجدونا هنا عندئذ .

مرَّرت أصابعها فى شعرها الأشقر الطويل ، قبل أن تقول فى توتر :

ـ يا إلهى لم تخطر محاولات الإنقاذ ببالى قط .

ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يغمغم :

ـ إنه مجرَّد احتمال .

ورفع عينيه يتطلَّع إلى الشمس ، التى مالت نحو الغرب ، قبل أن يتابع :

ـ ثم إن غروب الشمس سيأتى ، خلال ساعتين على الأكثر .

زفرت مرة أخرى ، وقالت :

ـ حقًا ؟! تصوَّرت أن شمس الصحراء لاتغرب أبدًا .

قال فى خفوت :

ـ إنها شمس واحدة للعالم كله ، ولن ..

بتر عبارته بغتة ، وانعقد حاجباه فى شدة ، على نحو لفت انتباهها ، فسألته فى مزيج من القلق واللهفة :

ـ ماذا هناك .

بدا لها وكأنه يتطلَّع إلى اللامكان ، وهو يرهف سمعه ، قائلاً :

ـ الشمال الغربى .. طائرة صغيرة .. محركان ..

سألته فى دهشة متوترة :

ماذا تقول ؟!

أدار عينيه بحركة حادة ، إلى الشمال الغربى ، وهو يجيب :

ـ لقد وصلوا .

أدارت عينيها مع إشارته ، وخفق قلبها فى عنف ، وهى تحدِّق فى طائرة صغيرة ذات محركين ، تتجه نحو حطام طائرتها مباشرة ، من الشمال الغربى ، وهتفت بكل لهفتها وانفعالها :

ـ طائرة ! لقد عثروا علينا .. لقد عثروا علينا .

قالتها ، وانطلقت تعدو على الرمال ، فى اتجاه الطائرة ، وهى تلوح بذراعيها ، صارخة فى لهفة :

- إننا هنا .. إننا هنا .

أما (أدهم) ، فقد وقف فى مكانه صامتًا ، معقود الحاجبين ، يراقب الطائرة فى شىء من الحذر ، وقد تفجَّر فى أعماقه قلق عجيب ، نبت من أعمق أعماق خبراته ، وتلك الغريزة المكتسبة ، خلال سنوات نضال طوال ..

ففى ذهنه ، تفجرْ احتمالان قويان ..

إما أن هذه طليعة فرقة بحث وإنقاذ ، لمسئولين رصدوا سقوط الطائرة الروسية المحترقة ..

أو أنها طليعة رصد ، أرسلها من كان مساعد الطيار الروسى يتجه بالطائرة إليهم .. إنها إما طائرة صديقة .. أو عدوة ..

ولقد حلَّقت الطائرة فوق رأسيهما مباشرة ، ثم دارت دورة واسعة ، والمضيفة الروسية تتقافز فى انفعال ، وتلوِّح بذراعيها فى عصبية ، صارخة :

- إننا هنا .. لا تبتعد .. إننا هنا .

هتف بها (أدهم) :

- لقد رآنا ، وهو يدور حولنا ، ليبلغ من أرسلوه بأمرنا .

صاحت بكل توترها ، وهى تراقب الطائرة الصغيرة :

- هل سينقذوننا ؟!

تردَّد لحظة ، قبل أن يقول فى حذر :

- ربما .

استدارت إليه بحركة حادة ، هاتفة :

- ربما ؟! ما الذى تعنيه بكلمة ربما هذه ؟!

لم يجب تساؤلها ، وعيناه تتابعان الطائرة ، التى راحت تحلِّق فوقهم فى دوائر ، وذلك القلق فى أعماقه يتضاعف ..

ويتضاعف ..

ويتضاعف ..

وفى اللحظات نفسها ، كان قائد الطائرة الصغيرة يقول فى حزم ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود :

ـ تلك الطائرة الروسية تحطمت إلى ثلاثة أجزاء مشتعلة ، ولكننى رصدت اثنين من الأحياء .. رجل وامرأة .

ارتفع حاجبا الجنرال (ألنزو) بكل دهشة الدنيا ، وهو يهتف :

ـ اثنين من الأحياء .

رفع (رود ريجز) أحد حاجبيه وخفضه ، قائلاً :

ـ ألم أقل لك .

رمقه (ألنزو) بنظرة عصبية ، قبل أن يقول قائد الطائرة ، عبر جهاز الاتصال :

ـ ما الذى ينبغى أن أفعله معهما .

تردد (ألنزو) لحظة ، قبل أن يغمغم :

ـ لسنا ندرى ما إذا كان الرجل هو ذلك الشخص الذى ..

قاطعه (رود ريجز) فى هدوء :

ـ إننى أفضّل التأكد من هذا ، من خلال الصفة التشريحية للجثث .

التفت إليه (ألنزو) بحركة حادة ، قبل أن يقول :

ـ آه .. فهمت .

ثم انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو يقول ، عبر جهاز الاتصال :

ـ ماذا تنتظر يا رجل ؟! أطلق النار أولاً ، وسنرى ما ينبغى فعله فيما بعد .

تألقت عينا قائد الطائرة فى جذل ، وهو يقول :

ـ كما تأمر يا جنرال .. كما تأمر .

ثم أنهى الاتصال ، ودار دورة أخرى بطائرته ،

فوق رأس (أدهم) والمضيفة الروسية ، قبل أن ينقضّ عليهما ، ويضغط زر إطلاق النار ، هاتفًا فى شراسة جذلة :

ـ فلتتفجرْ الدماء أنهارًا .

وانطلقت الرصاصات ..

بمنتهى العنف .

* * *



٧ ـ النيـران ..

طالع مدير المخابرات العامة المصرية ، فى اهتمام بالغ ، ذلك التقرير الأخير ، الذى ورد من الولايات المتحدة الأمريكية ، قبل أن يرفع عينيه إلى معاونه الأوّل ، قائلاً :

ـ إذن فقد تم رصد الطائرة الروسية بالفعل ، بعيدًا عن مسارها الطبيعى !

أومأ المعاون برأسه إيجابًا ، وهو يقول :

ـ نعم يا سيادة المدير ، فإحدى سفن التجسُّس الأمريكية القريبة من سواحل (كوبا) ، رصدت عبور تلك الطائرة الروسية ، على ارتفاع منخفض ، فى اتجاه الجنوب الغربى ، ولقد أثار هذا قلقها ، نظرًا لأنه ليس من المعتاد أن تحلّق طائرة ركاب على ارتفاع منخفض كهذا .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويستغرق فى التفكير بعض الوقت ، ثم يقول :

ـ هذا أمر غير طبيعى .

قال معاونه فى حذر :

ـ بالتأكيد ، ولهذا أثار انتباه واهتمام مراقبى سفينة التجسُّس الأمريكية .

هزَّ المدير رأسه ، قائلاً فى حزم :

ـ ليس هذا ما قصدته .

ثم نهض من خلف مكتبه ، واتجه نحو النافذة الكبيرة ، وهو يعقد كفيه خلف ظهره ويقف متطلعًا عبرها بعض الوقت ، ثم يقول :

ـ ما أردت قوله ، هو أنه لابد أن ينتبه (ن ـ ١) إلى هذا التغيُّر فى المسار ، باعتباره طيَّارًا من الطراز الأوَّل ، فكيف يمكن ألا يتدخل لمنع هذا ؟!

أجابه معاونه فى تردُّد :

ـ من يدرى ؟! ربما فعل !

التفت إليه المدير ، متسائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجاب فى شىء من الحذر :

ـ أعنى أنه ربما كان تدخُّله هو السبب فيما حدث

استدار إليه المدير بجسده كله ، قائلاً :

ـ وماذا حدث ؟!

هزَّ المعاون رأسه ، وهو يجيب :

ـ اختفت الطائرة .

التقى حاجبا المدير ، وقال وهو يتحرك فى مكتبه :

ـ تقرير سفينة التجسُّس الأمريكية يحوى عددًا من النقاط المهمة ، فى معلومة واحدة ، فمن الواضح أن الطائرة قد انخفضت عمدًا ، حتى لايمكن رصدها بالرادارات العادية ، وانحرافها عن مسارها الطبيعى مع هذا ، يعنى أنه هناك خيانة ، بين طاقم الطائرة ، سعت إلى الابتعاد بـ (ن ـ ١) عن سواحل الولايات المتحدة الأمريكية عمدًا .

سأله المعاون فى اهتمام :

- إلى أين ؟!

اتجه المدير إلى الخريطة الكبيرة ، التي تملأ جدار مكتبه بأكمله ، وأشار بيده إليها ، قائلاً :

- مع هذا الاتجاه ، يكون (المكسيك) هو المرشح رقم واحد .

انعقد حاجبا المعاون ، وهو يرسم فى ذهنه مسارًا وهميًا على الخريطة ، قبل أن يقول فى توتر :

- العجيب أنه لا توجد أية بلاغات أو تقارير حول هذا ، واردة من (المكسيك) .

أجاب المدير ، وهو يطالع الخريطة فى اهتمام :

- يبدو أن الارتفاع المنخفض ، الذى كانت تحلق عليه الطائرة ، قد منع رصدها على نحو طبيعى ، لو أن مخطط العملية قد اختار منطقة خاصة جدًا ، بحيث يمكن أن تعبر منها الطائرة ساحل (المكسيك) ، دون أن ينتبه إليها أحد .

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يدرس فى أعماق عقله ذلك الاحتمال الأخير ، قبل أن يلتفت إلى معاونه ، قائلاً فى حزم :

- أريد خريطة بمواقع الرادارات ، ومناطق الرصد ، ونقاط خفر السواحل ، على ساحل (المكسيك) .

دوّن المعاون كل هذا فى سرعة ، قبل أن يسأل فى اهتمام :

- ما الذى نسعى إليه بالضبط يا سيّدى ؟!

واصل المدير التطلُّع إلى الخريطة ، وهو يجيب :

- سنتقمّص شخصية مدبرى العملية ، ونعثر مثلهم على أفضل موقع لعبور ساحل (المكسيك) ، دون أن يشعر بنا أحد .

سأله المعاون فى اهتمام :

- ثم ؟!

أجابه فى حزم :

- ثم نجمع كل ما لدينا من معلومات ، ونستعين

بوجهات نظر الخبراء ، لنرسم مسار الطائرة الجديد ، حتى يمكننا تحديد منطقة هبوطها .

وصمت بضع لحظات ، قبل أن يكمل بنفس الحزم :

ـ وبعدها سنفعل كل ما يمكننا فعله ، من أجل رجلنا .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ من أجل (ن ـ ١) .

وأسرع المعاون ينفذ الأوامر ، فمن يدرى ؟!

ربما !!

* * *

ارتسم التوتر على وجوه زعماء عائلات (المافيا) ، وهم يجلسون حول مائدة الاجتماعات الكبيرة ، فى مقر كبرى شركات دونا (كارولينا) ، وراحوا يتبادلون عدة حوارات باهتة ، قبل أن يتساءل أحدهم فجأة :

ـ ألا يعرف أحدكم ، لماذا طلبت دونا الاجتماع بنا اليوم ؟!

انعقد حاجبا (جومانى) ، وهو يقول :

ـ دقائق وسنعرف كل شىء .

هتف آخر :

ـ ولماذا الغموض ؟! إننا زعماء كبرى عائلات (نيويورك) ، (ولوس أنجلوس) ، و(أتلانتا) ، وكل الولايات الأخرى ، ولسنا مجردُ تلاميذ فى مدرسة دونا (كارولينا) ، حتى تدعونا إلى اجتماع ، نجهل حتى الهدف منه .

تردَّد (جومانى) لحظة ، قبل أن يقول فى حذر :

ـ أظنه أمر يتعلَّق بما حدث مؤخرًا ، فى مستشفاها الخاص .

قال ثالث فى حنق :

ـ وما شأننا نحن به ؟! إنه أمر يخصّها هى ، ولقد اعتدنا ألا يتدخل بعضنا فى أمور البعض ، إلا إذا طلَبَ منا هذا .

التقى حاجبا (جوماتى)، فى توتر بالغ، وهو يستعيد موقفه، عندما هرع إلي مستشفى دونا (كارولينا)؛ ليعرض خدماته دون مبرر، وتراجع فى مقعده، وهو يداعب رباط عنقه الفاخر، متمتمًا:

- من يدرى ؟!

مطَّ أحد الزعماء كبار السن شفتيه، وهو يقول فى حنق:

- إنها طبيعة النساء .. يروق لهن دومًا إثارة الغموض فيما حولهن.

ثم مال إلى الأمام، مضيفًا في غضب:

- يبدو أننا قد أخطأنا، عندما ولينا علينا امرأة.

أتاه صوت دونا (كارولينا) من بعيد، وهى تقول فى صرامة:

- قول رجعى متخلِّف يا رجل.

اعتدل الرجل بحركة حادة، فى نفس اللحظة التى

ظهرت فيها دونا، وخلفها مساعدها (كارلو)، واتجهت مباشرة نحو مقعدها، على رأس مائدة الاجتماعات، مستطردة بنفس الصرامة:

- ولقد فات أوانه كثيرًا.

ارتبك الرجل، وهو يغمغم:

- كل ما قصدته يا دونا هو ..

قاطعته بصرامة أكثر:

- ليس هذا موضوع اجتماعنا اليوم.

جلست فى اعتداد، وهى تواصل فى صرامة حازمة:

- إنكم تعرفون جميعًا ما حدث فى مستشفاى .. أليس كذلك ؟!

تبادلوا نظرة قلقة متوترة، وقال أحدهم فى حذر:

- بلى يا دونا، ولكن ..

قاطعته ، وهى تدير عينيها الجميلتين فى وجوههم ، بكل صرامة وقسوة :

ـ إنها عملية داخلية .

بدا قولها أشبه بقنبلة ، انفجرت وسط مائدة الاجتماعات ، فقد ساد إثرها صمت مباغت ، واتسعت العيون كلها عن آخرها ، وحدقت فيها بمزيج من الدهشة والاستنكار ، قبل أن يهتف أحدهم فى غضب :

ـ أى قول هذا يا دونا ؟!

أجابته فى شراسة :

ـ قول الخبراء يا هذا .

صاح آخر فى ثورة :

ـ أى خبراء ؟!

أجابته فى صرامة شرسة :

ـ أكبر خبراء فى تقصى الحقائق ، وكشف الجرائم يا رجل .. خبراء لايشق لهم غبار فى هذا المضار .. لقد فحصوا المكان ، ودرسوا الموقف ، ونبشوا الأرض

نبشًا ، وراجعوا نتائجهم ثلاث مرات بمنتهى الدقة ، قبل أن يخرجوا بهذه النتيجة .

سيطر (جومانى) على أعصابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ ولكن لماذا يادونا ؟! ماشأن زعماء العائلات بفتاة مخابرات مصرية ، تضعينها تحت رعايتك دون مبرّر ؟! من يمكن أن يسعى لاختطافها ، بعد كل هذا الوقت ؟!

مالت إلى الأمام ، وهى تتطلّع إلى عينيه مباشرة ، قائلة فى حدة :

ـ أأنت مخلص فى أسئلتك هذه ؟!

امتقع وجهه ، وهو يقول :

ـ ماذا تعنين ؟!

ثم انتبه إلى ذعره وانكماشه ، اللذين كادا يكشفان أمره ، فاعتدل فى مقعده بحركة حادة ، وكرّر مصطنعًا الغضب :

ـ ماذا تعنين يا دونا ؟!

واصلت التطلُّع إلى عينيه لبضع لحظات ، قبل أن تتراجع فى بطء ، قائلة بنفس الصرامة القاسية :

- لست أعنى شيئًا يا (جومانى) ، ولست أتهم اتهامات عشوائية .

وأدارت عينيها فى وجوههم ، قبل أن تتوقَّف بهما عند عينيه مرة أخرى ، قائلة :

- فعندى الدليل .

انتفض جسده على مقعده ، دون أن يتمالك نفسه ، وردَّد فى ارتياع :

- الدليل .

خُيِّل إليه أن الكل قد لاحظ اضطرابه ، إلا أنه وجد أحد الرجال يتساءل فى عصبية ، على نحو يوحى بأنه لم يدرك شيئًا :

- أى دليل يا دونا ؟! لو أنه لديك دليل ضد أى من الجالسين هنا ، فاطرحيه على المائدة علنًا ، وفورًا .

ابتسمت دونا ابتسامة ساخرة ، وهى تقول :

- كلاَّ .. إننى أفضّل الاحتفاظ به لنفسى .

وعادت تتطلَّع إلى عينى (جومانى) مباشرة ، وهى تكمل :

- فى الوقت الحالى .

كاد (جومانى) ينكمش فى مقعده ، من فرط توتره ، لولا أن استنفر كل طاقته للسيطرة على أعصابه ، وهو يقول :

- ولماذا ؟!

خرجت الكلمة من بين شفتيه جافة متحشرجة ، فابتسمت هى فى تشفٍّ واثق وهى تجيب :

- لأننى لا أريد إشعال حرب بين العائلات .. هذا لن يفيدنا فى الوقت الحالى .

قال رجل آخر فى عصبية :

- ماذا تريدين منا إذن يا دونا ؟! لماذا هذا الاجتماع السخيف ؟!

أدارت عينيها إلى وجوههم جميعًا ، وهى تجيب فى حزم :

ـ أريد (جيهان) .

هتف أحدهم فى توتر :

ـ من ؟!

أجابت فى صرامة شرسة :

ـ (جيهان) .. فتاة المخابرات المصرية فاقدة الوعى ، التى أضعها تحت رعايتى دون مبرر ، والتى تم اختطافها من مستشفاى الخاص .. أريدها سالمة .. حية .. لم تمسّ منها شعرةً واحدة .

تساءل أحد الزعماء فى غضب :

ـ أتريدين منا أن نبحث عن تلك المصرية ؟!

قالت فى قوة :

ـ بل أريد أن تعود .

هتف آخر :

ـ ومن سيعيدها ؟!

تراقصت ابتسامة ساخرة على ركن شفتيها ، على نحو لا يتناسب قط مع الموقف ، وهى تجيب :

ـ لا يعنينى إطلاقًا من سيعيدها .. كل ما يعنينى هو أن تعود .. سالمة .

مرة أخرى ، ران على المكان صمت رهيب ، والكل يحدّق فى وجهها بمنتهى الدهشة والحيرة !!

فالأمر لم يكن يحتاج إلى ذكاء جم ، ليدرك الكل أن عبارتها هذه بمثابة رسالة لأحد الحاضرين ، والجالسين حول مائدة الاجتماعات هذه ..

وكان هذا أمرًا مهينًا بالنسبة للجميع ..

فيما عدا واحدًا ..

(ألبرتو جوماتى) ..

هو وحده ، أدرك أن الرسالة موجهة إليه مباشرة ..

خاصة مع تلك النظرة ، التى رمقته بها دونا .. وفى أعماقه ، تولد توتر عنيف ..

وغضب عارم ..

وقرار ..

قرار بأن ما حدث ، فى اللحظة السابقة ، يعنى أن مرحلة المناورة والخداع قد انتهت ..

وأن اللعب الآن بأوراق مكشوفة ..

وهذا يعنى أن كل شىء قد تغير ، وانقلب رأسًا على عقب ، و ....

ويمنتهى العنف ..

* * *

لو أردنا تقييم ما حدث هناك ، فى قلب الصحراء المكسيكية ، فى تلك اللحظة ، التى انقضّت فيها الطائرة الصغيرة ، التابعة للجنرال (ألنزو) ، على (أدهم) ، وتلك المضيفة الروسية ، لأصابتنا حيرة بالغة بحق ..

تُرى هل أدرك (أدهم) ، بخبرته فى الطيران ، مع زاوية انقضاض الطائرة عليهما أنها ستطلق النار ؟!

أم أنها - مرة أخرى - تلك الغريزة الغامضة ، التى تولد وتنمو ، فى أعماق كل رجل مخابرات ؟!

أم أنها - فى الواقع - مزيج من هذا وذاك ؟!

ففى نفس اللحظة ، التى بدأ فيها الطيار ، يضغط زر إطلاق النار ، وثب (أدهم) نحو المضيفة الروسية ، وجذبها إليه فى قوة ، صائحًا :

- احترسى ..

ومع جذبته لها ، انطلقت منها صرخة دهشة وذعر ..

وانطلقت رصاصات الطائرة ..

وامتزجت الصرخة بدوى الرصاصات ، وصوت ارتطامها بالرمال ، على مسافة سنتيمترات منهما ..

وبكل الغضب ، صرخ الطيّار ، وهو يتجاوزهما مع سرعته الفائقة :

- يا للسخافة !

وفى اللحظة التى بدأ يدور فيها دورة أخرى ، استعدادًا لانقضاضة جديدة ، صرخت المضيفة فى رعب :

- ماذا يفعل هذا المجنون ؟!



ففى نفس اللحظة ، التى بدأ فيها الطيار يضغط زر إطلاق النار ، وثب (أدهم) نحو الضيفة الروسية ، وجذبها إليه فى قوة ..

جذبها (أدهم) من يدها ، وانطلق يعدو معها ، نحو حطام الطائرة ، صائحًا فى صرامة :

ـ يسعى لقتلنا .

صرخت بكل رعب الدنيا :

ـ ولكن لماذا ؟! لماذا ؟!

لم يجب تساؤلها هذه المرة ، وهو يعدو بها بأقصى سرعته ، فوق رمال الصحراء الملتهبة ، فى حين أكمل الطيار دورته ، وعاد ينقضّ عليهما مرة أخرى ، وهو يصرخ :

ـ لن تفلتا هذه المرة .

وعلى الرغم من عدوه بأقصى سرعته ، ومن صرخات الرعب التى تطلقها المضيفة الروسية ، أرهف (أدهم) سمعه ؛ لمتابعة مسار محركى الطائرة ، مستعينًا بكل خبراته فى الطيران ، والقتال ، و ....

وفجأة ، انحرف بمساره جانبًا ..

وفى اللحظة نفسها ، أطلق الطيار رصاصاته ..

ومع دويها ، وارتطامها بالرمال ، على قيد خطوة واحدة منهما ، صرخت المضيفة مرة أخرى ..

وصرخ الطيار أيضًا :

ـ مستحيل ! كيف يفعلان هذا ؟!

لم يكن يدرك أن (أدهم صبرى) قد شحذ كل حواسه وقدراته ، لتحديد اللحظة ، التى تصبح فيها الطائرة فى مسار ، يصلح لإطلاق النار عليهما ، حتى يبتعد عن هذا المسار بحركة حادة ..

ولم يكن بإمكانه حتى أن يتصوّر إمكانية حدوث هذا ..

أبدًا ..

فالأمر ليس عاديًا على الإطلاق ..

إنها قدرة خاصة ومدهشة ، إلى أقصى حد ..

قدرة تحتاج إلى منتهى الانتباه ..

ومنتهى التركيز ..

ومنتهى الخبرة ..

وذروة فى السيطرة على المشاعر والانفعالات ..

باختصار ، هى قدرة مستحيلة ، لايمكن أن يمتلكها سوى ، رجل خاص جدًا ..

رجل المستحيل !

وبكل غضبه وثورته ، دار الطيار دورة أخرى ، وهو يهتف عبر جهاز الاتصال اللاسلكى :

ـ هذا الرجل غير عادى يا جنرال .

انعقد حاجبا (رود ريجز) بشدة عند سماعه العبارة ، فى حين تساءل الجنرال (ألنزو) فى توتر :

ـ ماذا تعنى ؟!

هتف الطيار ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى .

ـ لقد أفلت مع زميلته من رصاصات الطائرة مرتين ، كما لو أنه يعرف بالضبط متى أطلق النار .

غمغم (رود ريجز) فى اهتمام :

ـ إنه هو .

ثم استدار إلى (ألنزو) مضيفًا فى حزم :

ـ إنه رجل المخابرات المصرى ، الذى استأجرونا للقضاء عليه .

حدّق فيه (ألنزو) لحظة ، فى توتر بالغ ، قبل أن يقول فى صرامة شرسة ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى :

ـ وماذا تريد منى يا رجل ؟! أطلق النار عليهما مرة أخرى .. وأخرى .. ولا تتوقّف إلا بعد أن تنال منهما ، وإلا نلت أنا منك ، عند عودتك إلى هنا .

هتف الطيار فى عصبية ، عبر جهاز الاتصال :

ـ لقد اختفيا ، خلف أحد أجزاء حطام الطائرة .

صرخ فيه (ألنزو) ، بكل غضب الدنيا :

ـ اظفر بهما ، وإلا فلا تعد إلى هنا ، حتى لا أقطع عنقك بلا أدنى رحمة .

ومع نهاية صيحته ، أنهى الاتصال فى حدة ، ثم التفت إلى (رود ريجز) ، هاتفًا فى حنق :

ـ أى تخاذل هذا ؟! كيف يقود طائرة مزوّدة بمدفع آلى ، ويعجز عن الظفر برجل وامرأة ؟!

أغاظه أن يتجاهل (رود ريجز) عبارته تمامًا ، وقد انعقد حاجباه ، وشرد بصره على نحو متوتر عجيب ، فصاح فى غضب :

ـ هل تسمع ما قلته يا كولونيل ؟!

التفت إليه (رود ريجز) فى سرعة ، قائلاً فى انفعال :

ـ سأخرج إليه .

حدّق الجنرال المكسيكى فى وجهه ، مغمغمًا فى دهشة محنقة :

ـ ماذا ؟!

أجابه فى حزم منفعل :

ـ إنه الرجل الذى استأجرونا من أجله .. أنا واثق من هذا ولابد أن نفترض أنه سيفلت من الطائرة ،

ولن نتحرك بأقصى سرعة وحزم ، قبل أن تفلت الأمور من بين أصابعنا .

حدّق فيه (ألنزو) بمنتهى الدهشة والاستنكار ، قبل أن يهتف فى غضب :

ـ أى قول أحمق هذا يا كولونيل ؟! كيف يمكن أن يفلت رجل ، مهما بلغت قوته ، من طائرة تطارده ، بمدفع آلى قوى ؟!

أجابه (رود ريجز) فى صرامة :

ـ تمامًا كما أفلت من حادث طائرة مروّع .

التقى حاجبا (ألنزو) الغليظان ، وهو يدرس الأمر فى ذهنه بصعوبة ، قبل أن يلوّح بيده ، قائلاً فى حدة :

ـ فليكن يا كولونيل .. أنت أركان حربى ومعاونى .. افعل ما تراه مناسبًا .

تألّقت عينا (رود ريجز) ، على نحو وحشى رهيب ، وهو يستدير إلى (ألنزو) ، ويؤدّى التحية العسكرية فى قوة ، قائلاً :

ـ سأبلغ أوامرك بالهجوم إلى الرجال يا جنرال .

راقت مداهنته للجنرال المكسيكى ، فشدّ قامته ، وفتّل شاربه الضخم فى زهو ، قائلاً فى صرامة :

ـ نعم .. أبلغهم أوامرى .

وفى نفس اللحظة ، التى اندفع فيها (رود ريجز) لتنفيذ ما أراد ، كانت المضيفة الروسية تغلق أذنيها فى قوة ، فى محاولة لمنعهما من سماع دوى رصاصات مدفع الطائرة الصغيرة ، وهى ترتطم بجسم الطائرة ، الذى تختفى مع (أدهم) خلفه ، وهى تصرخ :

ـ لماذا يفعل هذا ؟! لماذا ؟!

أجابها (أدهم) فى حزم ، وهو يعتصر ذهنه ، للبحث عن وسيلة ما ، للخروج من هذا الموقف :

ـ من الواضح أنه ينتمى إلى أولئك ، الذين خططوا للأمر كله ، وهو هنا لإكمال مهمتهم ، بعد أن فشل سقوط الطائرة فى القضاء على هدفهم .

سألته فى ارتياع :

ـ وما هدفهم هذا ؟!

أجابها فى صرامة :

ـ أنا .

حدقت فى وجهه بذعر ، وأدهشها أنها لم تدرك هذا وحدها ، فى حين أضاف هو بنفس الصرامة :

ـ ومن الواضح أيضًا أنها مجرّد بداية .

انتفض جسدها فى عنف ، وهى تهتف :

ـ مجرّد ماذا ؟!

تجاهل هتافها تمامًا ، وهو يدير عينيه فيما حوله ، بحثًا عن أى شىء ، يمكن أن يصلح كسلاح ، فى مواجهة أمر كهذا ، وهو يدرك جيّدًا أن الطائرة لن تلبث أن تدور حولهما لتطلق رصاصاتها عليهما مرة أخرى ..

ويدرك أيضًا أنها طليعة هجوم ما ..

هجوم لا يدرك مداه إلا الله (سبحانه وتعالى) ..

وأنه وتلك المضيفة وحدهما ، فى قلب صحراء تمتدّ إلى مالا نهاية ..

صحراء لايمكن أن تحمل لهما سوى الخطر .. والموت ..

ثم فجأة ، قفز أمر ما إلى ذهنه ..

شىء ما ، جعله يعتدل فجأة ، قائلاً :

ـ رباه ! لو أنها لم تحترق ، فربما ..

بتر عبارته بغتة ، فسألته فى توتر :

ـ ماذا تقول ؟! لماذا تتحدث بلغتك الأم ، فى موقف كهذا ؟! أريد أن أعرف ماذا تقول !

استدار يمسك كتفيها بغتة ، وهو يقول فى صرامة ، وبلغتها الروسية :

ـ اسمعينى جيّدًا .. ذلك الطيار سينقض مرة أخرى ، وسيظفر بنا حتمًا ، إن عاجلاً أو آجلاً .

امتقع وجهها فى رعب ، وهى تقول :

ـ يا إلهى ! يا إلهى !

انعقد حاجباه فى صرامة ، وهو ينظر إلى عينيها مباشرة ، قائلاً :

ـ قلت اسمعينى جيدًا .. سأجذب هذا الوغد بعيدًا ، فابقى هنا ، ولا تغادرى موقعك ، مهما حدث .. هل فهمت ؟!

أومأت برأسها إيجابًا ، وكل ذرة فى كيانها ترتجف رعبًا فترك كتفيها ، وتراجع خطوة ، وهو يرهف سمعه ، ليلتقط حركة محركى الطائرة ، قبل أن يقول فى حزم صارم :

ـ إلى اللقاء

نطقها ، ثم اندفع يعدو فجأة ، متجهًا فى العراء ، نحو مقدّمة الطائرة ، التى خبت نيرانها ..

وما إن رآه الطيار ، وهو يعدو فوق الرمال ، حتى استدار بطائرته إليه ، هاتفًا :

ـ لقد خرجت من مخبئك .. عظيم .

انقضّ بطائرته بمنتهى الشراسة هذه المرة ، وهو يكمل :

لن تفلت هذه المرة .. أبدًا .

وبكل شراسته وانفعاله ، ضغط زر إطلاق النار ، وهو يتجه نحو (أدهم) مباشرة ، و ....

وانطلقت الرصاصات ..

بمنتهى الدقة .

* * *



٨ـ الدمـاء ..

« هنا .. » ..

نطق خبير المخابرات المصرية الكلمة ، وهو يشير إلى خريطة كبيرة لصحراء (المكسيك) ، قبل أن يعدل منظاره فوق أنفه ، مستطردًا :

ـ هذا لو سارت الطائرة على المسار ذاته ، الذي عبرت به منطقة ساحل (كوبا) ، وخليج (المكسيك) فوفقا لخرائط الرادار ، ومواقع حرس السواحل المكسيكى ، فى اللحظة المفترضة لوصولها إلى الساحل ، تكون هذه النقطة عارية ، كما نطلق عليها ، أى أنه يمكن العبور منها ، إلى قلب الصحراء المكسيكية ، دون أن يشعر بها أو يرصدها أحد .

تطلّع مدير المخابرات ، وعدد من كبار معاونيه ، وفريق من كبار الخبراء والمتخصصين ، إلى النقطة التى أشار إليها خبير الطيران ، قبل أن يتساءل المدير :

ـ فليكن .. لو قلنا إن هذه نقطة العبور ، فإلى أى

مكان يمكن أن تتجه الطائرة ، بعد أن تصبح داخل حدود (المكسيك) بالفعل ؟!

رفع خبير الطيران سبّابته ، يرسم دائرة وهمية واسعة على الخريطة ، قائلاً :

ـ كل مكان فى هذه المنطقة يصلح لهذا ، فهى منطقة صحراء شاسعة ، مترامية الأطراف ، ولاتوجد بها أجهزة رادار كافية ، على الرغم من قربها من (مكسيكو سيتى) .

وعدّل منظاره فوق أنفه مرة ثانية ليتابع :

ـ المهم ليس منطقة الهبوط ، ولكن أسلوب الهبوط ، فطائرة ضخمة كهذه تحتاج إلى ممر هبوط كبير بما ينبغى ، وهذا أمر لايمكن أن يتوافر فى قلب الصحراء .

غمغم أحد معاونى المدير :

ـ مالم يتم إعداده لاستقبالها .

أشار إليه خبير الطيران ، قائلاً :

ـ هذه هى الفكرة المنطقية الوحيدة ، على الرغم من صعوبتها ، ولكن مع أهمية الهدف ، يمكن إنشاء

ممر مؤقت ، بوساطة ألواح ضخمة من الصلب ، يتمّ مدها بالطول المناسب ، مع إشارات هبوط واضحة .. هذا يمكن أن يتكلّف جهدًا شاقًا ، وثروة طائلة ، ولكنه سيصلح لهبوط الطائرة ، لو أن قائدها بالمهارة الكافية .

قال أحد المعاونين فى حزم :

ـ ثم إن الصيد يستحق .

مطّ مدير المخابرات شفتيه ، وقال فى حزم :

ـ أكثر مما ينبغى .

ثم التفت إلى معاونيه ، مستطردًا :

والسؤال الآن هو : ما الذى ينبغى أن نفعله ، بعد أن عرفنا أين ذهبت الطائرة .

أجاب كبير معاونيه فى حزم :

ـ أول شىء هو أن نجمع كل المعلومات الممكنة ، حول المنطقة التى تصلح لهبوط الطائرة .

وأضاف آخر :

ـ وأن نتحرك بالسرعة المناسبة .

ألقى المدير نظرة أخرى على الخريطة ، قبل أن يقول فى ضيق :

ـ حتى لو تحركنا بأقصى سرعة فورًا ، فإن أقرب رجالنا إلى المكان ، لايمكن أن يصل قبل ست ساعات على الأقل .

قال أحد الرجال فى توتر :

ـ هذا يعنى أن سيادة العميد (أدهم) سيواجه الموقف وحده هناك .

علّق آخر فى سرعة :

ـ كالمعتاد .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يقول :

ـ نعم .. كالمعتاد .

ثم انطلقت من أعماق صدره زفرة ملتهبة ، وهو يضيف :

ـ كل ما لدينا إذن ، إلى جانب حتمية التحرك بسرعة ،

وجمع كل المعلومات الممكنة ، هو أن نأمل أن يكون (ن ـ ١) قد بلغ منطقة الهبوط ، بكامل وعيه وقدراته ، و ....

قبل أن يتمّ عبارته ، دلف إلى الحجرة رئيس قسم الاتصالات والمعلومات ، بوجه ممتقع شاحب ، وهو يحمل فى يده برقية عاجلة ، فالتفت إليه الجميع فى توتر بالغ ، وسأله المدير فى قلق :

ـ معلومات جديدة ؟!

أومأ الرجل برأسه إيجابًا ، على نحو أكثر شحوبًا ، وهو يقول :

ـ لدينا تقرير رصد جديد ، من (المكسيك) .

سأله المدير فى لهفة :

ـ هل رصدوا هبوط طائرة (ن ـ ١) ؟!

تردّد الرجل لحظة ، قبل أن يقول فى شحوب :

ـ ليس هبوطًا يا سيادة المدير .

ثم ازدرد لعابه فى صعوبة ، ليضيف بصوت مرتجف :

ـ لقد سقطت الطائرة .

هتف أحد الرجال فى انزعاج :

ـ سقطت ؟!

أومأ برأسه إيجابًا ، وقال فى توتر لا محدود :

ـ مشتعلة .

اتسعت العيون كلها فى ارتياع ، وهوت القلوب بين الأقدام فى عنف ..

فتلك المعلومة الرهيبة ، كانت تقلب الأمور كلها رأسًا على عقب ..

تمامًا ..

* * *

حمل صوت (جوماني) كل عصبيته وتوتره ، وهو يجلس أمام شاشة الاتصال ؛ ليروى لمستر(X) ، زعيم المنظمة الغامض ، كل ما حدث فى اجتماع الليلة ، مع دونا (كارولينا) ، قبل أن يقول فى حدة :

ـ تلك اللعينة كشفت الأمر بوسيلة ما ، وبدأت تلعب بأوراق مكشوفة ، ولم يعد هناك وقت للمناورة وحركات الالتفاف الخفية .

سأله مستر (X) فى هدوء مستفز :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه فى عصبية بالغة :

ـ أعنى أن الأمور تسير على نحو خاص فى علمنا ، فمادامت دونا قد كشفت ما أفعله ، فلابد أن ينزاح أحدنا عن الطريق ، إما أن تزيحنى هى ، أو أزيحها أنا .

صمت مستر (X) بضع لحظات ، وكأنما يدرس الأمر فى ذهنه ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ دونا (كارولينا) لاتملك أى دليل ضدك .. إنه مجردُ استنتاج .

هزّ (جومانى) رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ إنك لم تر كيف كانت تتحدث الليلة !

قال مستر (X) فى صرامة :

ـ لقد كانت تسعى لإخافتك ، ودفعك إلى تقديم دليل إدانتك بنفسك .

هتف (جومانى) :

ـ مستحيل ! لقد كانت واثقة مما تقول .

زمجر مستر (X) ، قائلاً :

ـ هذا ما أرادتك أن تتصوَّره .

لم يقتنع (جومانى) بهذا القول ، فهزَّ رأسه مرة أخرى فى قوة ، قبل أن يقول ، بانفعال إيطالى محض :

ـ فيم انتظارنا على أى حال ؟!

سأله مستر (X) فى حذر :

ـ ماذا تعنى ؟!

لوَّح الإيطالى بيده ، وهو يقول :

ـ أعنى أنه مادام ذلك المصرى ، الذى كنا نعتبره

سلاحها السرى ، قد سقط هناك ، فى صحراء (المكسيك) ، على بعد آلاف الكيلو مترات من هنا ، وكل شىء يؤكد أنه لن يتجاوز موقفه هناك ، فلماذا لا نبدأ تنفيذ الخطة ، باعتباره قد انزاح عن الطريق بالفعل ؟!

بدا صوت مستر (X) قاسيًا ، وهو يقول :

ـ تمالك أعصابك يا دون (جوماتى) .. كل شىء ينبغى أن يسير وفقًا للخطة .

هبَّ (جوماتى) من مقعده ، هاتفًا فى حدة :

ـ أية خطة .. رجلكم يواجه جيشًا وحده ، فى صحراء (المكسيك) ، فأية فرصة له فى النجاة .

توتر صوت مستر (X) ، وهو يقول :

ـ ذلك الرجل تجاوز مواقف أكثر صعوبة فى الماضى ، و ....

قاطعه (جوماتى) بغضب هادر :

ـ لا أيها الزعيم .. لن أجازف بحياتى ، لأنكم مهووسون

برجل مخابرات مصرى ، تتصورون أنه أقوى من (سوبرمان) نفسه .. إنك لا تفهم عالمنا ، بقوانينه وتعقيداته .. دونا بدأت اللعب بأوراق مكشوفة ، وهددتنى خفية ، أمام مجلس العائلات كله ، وهذا يعنى أنه إما أن أتحرك بسرعة كافية ، لإزاحتها عن الطريق ، واحتلال موقعها القيادى ، أو تفاجئنى هى برصاصة فى رأسى ، قبل أن أستيقظ ذات صباح .

وتضاعف غضبه وحدته ، وهو يواصل :

ـ إنها مسألة حياة أو موت .. مسألة وقت .. إما أنا أو هى .

قال مستر (X) فى صرامة :

ـ تمالك أعصابك يا رجل .. من ينتمى إلى مجلس منظمة (X) ، لابد أن يتمتع برجاحة العقل ، و ....

صرخ (جوماتى) يقاطعه فى ثورة :

ـ فلتذهب منظمة (X) ومجلسها إلى الجحيم .. إننى أتحدث عن حياتى .

همَّ مستر (X) بقول شيء ما ، ولكن (جوماتى) ضغط زر إنهاء الاتصال بغتة ، ثم اشتعلت عيناه بالغضب ، وهو يعدّل رباط عنقه الفاخر ، مضيفًا :

ـ حياتى أيها الوغد .

قالها ، وغادر المكان كالإعصار ، وصفق الباب خلفه فى عنف ..

وكان هذا يعنى أن الحرب ستبدأ قبل موعدها فى (نيويورك) ..

وأن الدماء ستسيل ..

أنهارًا ..

* * *

فى اللحظة الأخيرة بالضبط ، وقبل أن تنطلق رصاصات الطائرة بجزء من الثانية ، وثب (أدهم) داخل بقايا مقدمة الطائرة الروسية المحترقة ..

وارتطمت الرصاصات برمال صحراء (المكسيك) فى عنف .

وبكل غضبه وثورته ، صرخ الطيار :

ـ لا .. ليس كل مرة .. هذا مستحيل !

انطلق بطائرته فى دورة جديدة ، وهو يهتف ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى :

ـ لقد اختفى داخل مقدمة الطائرة المحترقة .. سأستخدم قنبلة يدوية هذه المرة .. سألقيها على رأسه مباشرة .

أتاه صوت الجنرال (ألنزو) ، عبر جهاز الاتصال ، وهو يهتف به :

ـ افعل كل مايمكنك يارجل .. الكولونيل (رود ريجز) وفريق من الرجال فى طريقهم إليك .. سيصلون خلال نصف الساعة فحسب .. إن لم تستطع سحقه ، فأبقه حيث هو ، حتى يصل جيشنا على الأقل .

هتف به الرجل ، وهو يعتدل بطائرته ، ويلتقط قنبلة يدوية فى غضب :

ـ لو فشلت فى قتله بقنبلة يدوية ، فإننى أفضل الانتحار .

قالها ، وأغلق جهاز الاتصال اللاسلكى ، وهو يجذب فتيل القنبلة بأسنانه ، صائحًا :

ـ الوداع يا رجل الصحراء .. الوداع .

انقض بالطائرة على الهدف ، بكل غضبه وشراسته ، و ....

وفجأة ، برز (أدهم) من مقدّمة الطائرة الروسية المحترقة ..

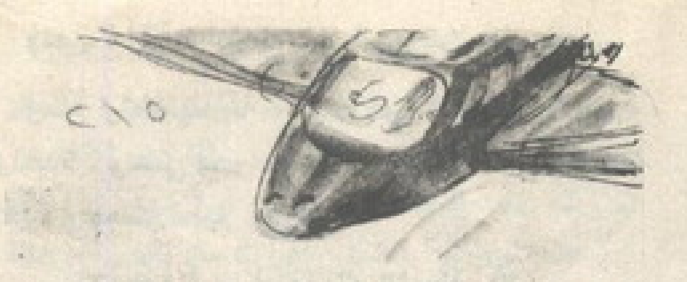
برز وهو يحمل تلك البلطة الصغيرة ، التى استخدمها من قبل ، لنسف أسطوانة إطفاء الحريق الصغيرة ..

كان قد استبدل ذراعها الخشبية ، التى احترقت عن آخرها ، بذراع معدنيه من بقايا الطائرة ، و ....

وبكل قوته ، ألقى (أدهم) البلطة الصغيرة نحو الطائرة ..

واتسعت عينا الطيار المكسيكى فى ذهول ، عندما شاهد البلطة تتجه نحو طائرته بدقة رهيبة ..

وبحركة غريزية ، انحرف بالطائرة ..





وفجأة ، برز (أدهم) من مقدّمة الطائرة الروسية المحترقة ..
برز وهو يحمل تلك البلطة الصغيرة ، التى استخدمها من قبل !! ..

ولكن البلطة ارتطمت بأحد المحركين فى عنف ..

ومع ارتطامها به ، اختلّ توازن الطائرة دفعة واحدة ، وعلى نحو مباغت ، فمالت على جانبها بحدة ، جعلت الطيار يصرخ :

ـ مستحيل ! كيف فعلها ذلك الشيطان ؟!

أمسك مقود الطائرة بكفيه فى قوة ، فى محاولة للسيطرة عليها ، واستعادة توازنها ، ولكن القنبلة اليدوية سقطت من يده ، مع حركته الغريزية السريعة ، وسمع صوتها ترتطم بالأرض تحت قدميه ، فاتسعت عيناه بكل رعب الدنيا ، وصرخ :

ـ لا .. لايمكن أن ..

وقبل أن تكتمل صرخته ، دوى الانفجار ..

انفجرت القنبلة اليدوية داخل الطائرة الصغيرة ذات المحركين ، فنسفتها مع قائدها فى عنف ، وتطايرت شظاياها على مسافة واسعة ، قبل أن تسقط أرضًا ، وتتدحرج على رمال الصحراء ..

وفى ذهول ، حدّقت المضيفة الروسية فيما حدث ، ورأت (أدهم) ينهض ، عند بقايا مقدمة الطائرة الروسية ، بعد أن انبطح أرضًا ، لتفادى الانفجار ، ثم رأته يتجه إليها ، وهو يسير فى هدوء ، وكأنما أدى عملاً روتينيًا عاديًا ، فبرزت من مكانها ، هاتفة فى انبهار :

ـ كيف فعلت هذا ؟!

أشار بيده ، مجيبًا :

ـ كان توفيقًا من اللّه (سبحانه وتعالى) .

هتفت مبهورة :

ـ ولكنك ألقيت تلك البلطة الصغيرة نحوه ، و ....

قال فى حزم :

ـ الطيار انحرف بمهارة ، ولولا عناية اللّه (عزّ وجلّ) ، لما أصابت البلطة المحرك .

حدّقت فى وجهه بانبهار ، قائلة :

ـ أهذا هو ما تطلقون عليه (الإيمان) ؟!

ابتسم ابتسامة باهتة ، وهو يجيب :

ـ قليل منه .

هتفت ذاهلة :

ـ قليل ؟!

اتجه نحو بقايا جزء آخر من الطائرة الروسية ، وهو يقول :

ـ سيحضر الباقون بعد قليل حتمًا .

رددت فى رعب :

ـ الباقون ؟!

ثم هتفت مذعورة :

ـ لابد أن نبتعد عن هنا إذن .. وبأقصى سرعة ..

أشار بيده إلى رمال الصحراء ، التى تمتدّ إلى مدى البصر ، فى كل الاتجاهات ، وهو يقول :

ـ إلى أين ؟! هل ترين مكانًا واحدًا ، يمكن أن يحمينا منهم ؟!

امتقع وجهها بشدة ، وهى تقول :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟! هل سنبقى ، حتى يأتوا لقتلنا ؟!

صمت لحظة ، قبل أن يجيب فى صرامة :

ـ بل سنقاوم .

هتفت فى حنق :

ـ وكيف ؟! بتلك البلطة الصغيرة ؟!

صمت بضع لحظات ، وهو يفكّر فى عمق ، قبل أن يقول فى حزم :

ـ اتركى هذا الأمر لى .

أطبقت شفتيها ، على الرغم منها ، وارتكنت إلى بقايا حطام الطائرة الروسية وانعقد حاجباها فى شدة وهى تراقب مايفعله فى حيرة ، فى حين راح هو يعمل فى نشاط على الرغم من العرق الغزير ، الذى تصبّب على جسده ، و ....

« بالمناسبة .. اسمى (هوليا) .. »

نطقت عبارتها بغتة ، بعد فترة طويلة من الصمت ، فغمغم ، دون أن يلتفت إليها :

ـ تشرفنا .

راقبته بضع لحظات أخرى ، قبل أن تقول فى عصبية :

ـ ألا يمكننا أن نتحدث على الأقل .

قال فى صرامة :

ـ هل يبدو لك الموقف مناسبًا لهذا ؟!

قالت فى حدة :

ـ وما الذى يمنع أن ..

استوقفها بحركة صارمة ، وهو يعتدل مرهفًا أذنه فجأة ، فامتقع وجهها بشدة ، وهى تسأله :

ـ ماذا هناك ؟!

استدار قائلاً فى صرامة :

ـ لقد وصلوا .

أدارت عينيها بحركة حادة ، إلى حيث ينظر ، قبل أن تنطلق من حلقها شهقة رعب ، وتصرخ :

ـ رباه !

فمن بعيد ، وعلى مدى البصر ، وقعت عيناها على ذلك الجيش الصغير ..

الجيش الذى يقوده (رود ريجز) ، والذى ينطلق نحوهما مباشرة ، مع هدف واحد ، سحقهما تمامًا .. وبلا رحمة .

* * *

انتهى الجزء الأول بحمد الله
ويليه الجزء الثانى بإذن الله
(رجل .. وجيش)